يودّ ترك العنان لطموح يملأ نفسه لخدمة الوطن ككل. ولإثبات مواهبه في مجتمع بدأ يبني نفسه من جديد.

وكان حبل النجاة يوم عثر على فكرة محو الأمية وتعليم الكبار. إذ حلّ بالعاصمة فجأة، وأخذ يطوف بالمدارس الخاصّة مقنعا مديريها بفتح أقسام ليلية للكبار مقابل معلوم يدفعونه، على أن يتولّى تجنيد المعلمين لإعطاء الدروس مجانا. وعلى هذا زار رفاقا قدامى صاروا معلمين فيما بعد وأقنعهم بمشروعه، كما حثّ جمعيات خيرية ومؤسسات تجارية لمدّ يد المساعدة، ثم وسّع رقعة نشاطه. منطلقا من الحلفاوين والزاوية البكرية وسوقي بلخير وسيدي عبد السلام وما والى تلك المناطق الشعبية، إلى أن وصل إلى باب سعدون وأسواق المدينة العتيقة، وعندها بدأ هذا النشاط الشعبي يجلب الانتباه. ودار الحديث حوله في أوساط مختلفة، وارتفع درجة بعد أخرى إلى أن بلغ الدوائر العليا. لاداعي إلى ذكر التفاصيل، ولعلك علمت أن المشروع تبنته الحكومة فيما بعدُ وخصصت له ميزانية هامة. أما باعثه ومنشطه فقد علا نجمه، ودعي ليكون واليا على إحدى المناطق الحيوية في أول تحوير إداري صادف ذلك التاريخ، ومن ساعتها اختفى الرجل الشعبي الذي يبتسم للأميين البسطاء وهو يعلّمهم الألفباء، وعوّضه ذلك الوالي المتجهّم الذي قابلته ونزلت في ضيافته.

أرأيت ما تفعل الدنيا بالناس ؟

ـــ نعم رأيت يا ابن عمي.

أمسك الشاعر بيد صديقه كطفل صغير، وتلك عادته عندما ينوي الإلحاح على أمر، وقال بحماس :

ـــ غدا نذهب في قافلة الشعراء إلى مدينة الكاف لإحياء أمسية شعرية، وستصحبنا سيارة الإذاعة لتسجّل حصّة حيّة بحضور الجمهور.

Scanned by CamScanner

ـــ هل هي حفلة عمومية ؟

ـــ لا... حفل إلقاء قصائد فقط.

ـــ وهل يحضر جمهور كبير لسماع الشعر ؟

ـــ سترى بعينك... لقد كوّنا جمهورا محترما يطرب لسماع الأوزان والقوافي.

ـــ يا بختكم !

ـــ وتنقلنا بين المدائن والقرى ضمن جمعية ألّفناها لهذا الغرض.

وبدأ يسرد أسماء شعراء شبان وآخرين كهول، بعضهم مشهور وبعضهم مغمور. شكره عامر على الدعوة وأراد الاعتذار، ولكنه ألحّ عليه واستحلفه باسم الصداقة أن يذهب لتشجيعه، حتى وإن كان غير راغب في سماع الشعر.

كان ناس تلك المدينة الجبليّة متجمّعين في دار الشعب ينتظرون وصول الشعراء، فلم يصدّق عامر ما رأى، وبأنه يوجد جمهور لسماع الشعر، ولكن الواقع بيّن له خطأه، لأن موجة تفشّت في تلك الأيام جعلت المدن تتنافس في تنظيم حفلات يدعى لها الشعراء، وربما أردفوا بموسيقيين ومغنين، فتقام هكذا ليالي تنفيس شعبي يحضرها الجمهور العريض، أو سهرات ترفيه للمسؤولين ونواب السلطة، وهذه تتمّ بترتيب معيّن خاصة في المناطق النائية، وأطلق على تلك الفورة اسم أفراح المدينة.

برزت أيضا ظاهرة شعراء الملحون، لعلعلت أصواتهم في الاذاعة بالحمد والتّمجيد، وارتفع قدرهم حتى صاروا يحضرون ولائم القصور الكبيرة، فيلفّقون من المعاني والكلمات ما يتفق مع المناسبة أو يقتضيه الظرف ويتقاضون مكافآت مالية على ذلك.

كانت البلاد تعيش آنئذ فورة التلوينات الثقافية : فرق للفنون الشعبية هنا، ترقص وتغني وتقدم الأغاني الفلكلورية، وفرق هناك

Scanned by CamScanner

للمالوف، وفرق أخرى للمدائح والأذكار، حتى لا تكاد تخلو قرية مهما صغرت من واحدة منها... والجميع موظّف توظيفا حسنا لإظهار مهاراته في المناسبات الوطنية، أو مهرجانات الحمد والشكر وإظهار الولاء.

صاحب ذلك إنشاء عدد من دور الشعب ودور الثقافة، وارتفعت درجة التحريض على تناول المادة الثقافية كعنصر أساسي في التنمية، ضمن التحمس الشامل لتحقيق التنمية بكافة مكوناتها. وصار من المألوف قراءة شعارات أروبا الشرقية في صفحات الجرائد والاستماع إليها في الإذاعة، أو التفرج عليها في لافتات تسدّ أفق الشوارع.

امتلأت القاعة بجمهور متنوع، أغلبه تلاميذ مع مدرّسيهم، وحضر السياسيون والإداريون، وبدأت الخطب الرنانة والتصفيق الحار، والهتاف بحياة رجال ومبادئ وشعارات غير نابعة من وجدان الجمهور، وإنما هي النفاق المحض من وحي تلك الساعة من ذلك الزمان، من ذلك العام، من ذلك القرن.

ثم جاء دور الشعر، فتبارى أصحاب الشاعر الصديق في رفع العقائر والتلويح بالأيدي ومطّ الشفاه وتبديل السِّحن حسب متطلبات القصيد ومقتضى معانيه، فغطى ذلك الأخطاء والعلل والزحافات واضطراب الأوزان في أغلب ما استمع إليه الحاضرون، ولكن روح العدل وزّعت التصفيق والهتاف على الجميع بالقسطاس المستقيم.

وفي ساعة العشاء اجتمع الفوج حول مائدة عامرة بالطعام والشراب، وهم في لغط وصخب لا ينتهيان، إلى أن علا فوق جميع الأصوات خصام قد نشب بين شاعر قصير القامة لايكاد يبين وسط الزحام، وبين رجل طويل القامة يدّعي أنه صحفي ناقد، أو ناقد صحفي.

Scanned by CamScanner

لوّح القصير بقبضته في الهواء كمن يهدّد أشباحا وصرخ :

ـــ قل لمن درّسك الأدب أو قلة الأدب أنّ ادّعاءه مردود.

ـــ من فضلك... من فضلك. أنا لا أحد يدرّسني، ولا أحد يلقّنني ما أقول.

هكذا أجاب الناقد الطويل وقد احمرّت عيناه غضبا، وامتدت ذراعه الطويلة منذرة بالشر. أبعد الشاعر القصير وجهه عن الذراع واستمر يتحدى :

ـــ مهما كان الشخص، بلّغه عدم احترامي رجاءً... فالذي قال لك : الشعر أميّة ثقافية هو ذاتُه الأمّيّ الذي لا يفهم شيئا في الثقافة. لأن الشعر إذا عرّفناه بمقولات اليونان الأوّلين...

قاطعه الطويل وذراعه فوق رؤوس الجالسين :

ـــ لقد أطلعتك وأعلمتك وبلّغتك قولا في تعريف الشعر لم أسمعه من قبل... أعدته عليك من باب الإفادة كما خرج من فم صاحبه.

ـــ فم صاحبك أبخر ولسانه نتن. إنه أمّيّ ولا يفقه من فن الشعر شيئا... لأن الشعر منذ أيام اليونان...

ـــ يا رجل افهم، إنه ليس صاحبي، ولا أنا موزّع بريدك لأنقل إليه رسائلك. ما بالك قد ركبت عفريتا من أجل عبارة بسيطة، ربما قالها صاحبها للتفكّه والدعابة؟

ـــ تقول عبارة بسيطة... بمثل هذه العبارة البسيطة خرّبت ثقافات، ودفن شعراء وهم أحياء يبصرون.

في الطرف الآخر من المائدة نشبت معركة أخرى بين أنصار الشعر العمودي وغريمه في غير العمودي والحرّ، وتعالت أصوات نسائية تحاول الانحشار وسط الضوضاء السائدة دون جدوى، فتضيع في فضاء القاعة الكبيرة، مثل ضياع القضايا الأساسية في ثنايا الخصام.

Scanned by CamScanner

ـــ إذا كنت بقصيدة يتيمة نشرتها منذ سبع سنوات، تريد فرض رأيك، والانتصاب حكما بين الأصناف الشعرية، فأنت مخطئ. وإنما سكت الناس ولم يردعوك عن الأحكام الخاطئة التي تطلقها جزافا مراعاة لسنّك.

ـــ إذا لم أنشر قصائدي فليس معنى ذلك أنني توقفت عن قول الشعر، فصحفكم التافهة التي تنشر الغثّ والسمين لا تليق بقصائدي. أنا أحترم شعري لذا أفضّل الاحتفاظ به في الدّرج كريما مصانا.

كان الشاعر الكهل يحتجّ موزعا نظرة متعالية على أفراد القافلة كأنما يقول : أنا المجنون الذي رضيت بالانضمام إليكم. صاح شاعر مبتدئ كان يستمع إلى الحوار :

ـــ فلتطلق على عملك اسم «الشعر المصون في الدّرج المكنون».

تعالت الضّحكات من كل مكان، فقام الشاعر صاحب القصيدة اليتيمة، ونقل كرسيه إلى مكان آخر وشفتاه تطلقان لعنات لم يسمعها أحد، وإلاّ لكانت شرارة لخصومة أخرى.

كان جماعة من الشبان قد أحاطوا بفتاة تدّعي قول الشعر. ولكن لا أحد رأى قصائدها سوى التي قرأتها في أمسية اليوم بعنوان **همسات**، وقد قرأتها وهي تهمس بالفعل، فلم يبلغ أغلبها آذان السامعين، وراجت أخبار أثناء المأدبة أنها من نظم أحد الشبان المعجبين بشفتيها المكتنزتين، ولعله أحد أولئك الذين يتنافسون في إضحاكها الآن، رغم أن المهمة ليست عسيرة، فالبنت لم تنقطع عن كشف أسنانها البيضاء منذ تحركت القافلة. كانت هي المرأة الوحيدة في المجموعة التي يرضى أن يغازلها رجل محترم، وكانت هناك ثانية رافقت الجماعة، وأنشدت قصيدة من النوع المجدّد تجعلها أقرب إلى صنف الشعراء، بقدر ما هي أبعد عن صنف الإناث. كانت تجلس قرب أحد منظمي الحفل وهو رجل مجامل عامل الجميع بكثير من الرأفة.

Scanned by CamScanner

أمسك الشاعر بيد صديقه عند صعودهما السيارة وسأله :

ـــ هل أعجبك الحفل الشعري ؟ هل سررت بمصاحبتي في هذه الرحلة ؟

ـــ أعجبتني مصاحبتك، ولم تعجبني مصاحبة الآخرين.

ـــ لماذا ... هل تأذّيت من أحدهم ؟

ـــ آذاني شعرهم وتصرّفاتهم.

ـــ لا تخش شيئا سأؤدبهم جميعا. ولن أترك أحدا يدعوهم إلى مواكب الشعر في المستقبل.

ـــ على ذكر مواكب الشعر هذه... هل أنت مؤمن بجدواها حقّا ؟

ـــ هل ستعود بنا إلى نقاش الأمس ؟

ـــ أنا لا أنقص من قيمة الشعراء. ولا أشكّك في جدوى الشعر. ولكنني محتار في أهمية وجدوى أمسيات ومواكب تساق إليها قوافل فيها الشاعر المجيد ممن تشتهي أن تسمعه. والمعتبط والدخيل. وممن تشتهي أن تصفعه. ألم يأتك حديث الناس عن العكاظيات، واستهزاؤهم بشعراء القراطيس تمتد أيديهم بعد كل موكب إلى مظروفات لتقاضي أتعابهم. أهكذا هم الشعراء كما في ضميرك؟ هل هذه هي مهمتهم، وهل هذا هو دورهم ؟

تنهد الشاعر، ونظر من نافذة السيارة إلى أراضي الشمال الخصبة، وقال كالمحدث نفسه :

ـــ لم يكتو الجميع بنفس النار، ولم يتقلبوا كلهم في نفس المطهر. أما وبلادنا تحتاج إلى كل الأصوات لتنمو وتعدّل الكفّة بين الفقراء والأغنياء فهي تدفع الجميع إلى التحرّك، كل واحد حسب جهده وبما يستطيع، العامل في مصنعه. والفلاح في حقله. والشاعر في مواكب الإلقاء، وهل له غير ذلك ؟

ـــ انتبه... قلت الشاعر، ولم تقل الشويعر أو المتشاعر.

Scanned by CamScanner

ـــ لا يوجد فرز، لا في طائفة الشعراء ولا في غيرها... الجميع في خلط وجلط.

ـــ هذه من صفات أزمنة الالتباس.

ـــ إن أردت قولها فقلها مادمنا وحدنا... لا أحد يريد سماع مثل هذا الكلام، فقد وقف الجميع كالشوك في حلقي عندما بدأت أنبّه أننا حدنا عن مبادئنا ودخلنا منطقة الغموض والالتباس.

نظر إليه صاحبه بطرف عينه ودندن يغني :

ـــ شيئان في بلدي قد خيّبا أملي...

فصاح فيه الشاعر :

ـــ اصمت... أغلق فمك بسرعة.

ـــ لماذا ؟ أنا لم أذكر الشيئين.

ـــ هكذا أحسن... لا تزد إلى البيت الأول شيئا.

ـــ سأزيد من عندي.

ـــ وهل أنت شاعر ؟ وماذا عندك ؟ لا شيء.

ـــ الضّرب بالدّفّ والشّطحان بالقلل

ـــ لعنة الله عليك وعلى أجدادك... من أين أتيت بهذا ؟

وأعقب شتيمته بالتصفيق والهتاف، بل وقف يرقص ويعيد البيتين معا، وعامر يتابعه بالنقر على ظهر الكرسي، فيما استمر محرك السيارة يهدر، ومصابيحها تشق ظلمة الطريق.

ينتابني شعور بالتقصير نحو عثمان. وعدته بزيارة ثانية لكنني لم أنفّذ وعدي، ولا زرته في بيته كما اشتهى. لكنّ نفسي تمنّت زيارة المشروع الفلاحي النموذجي الذي يديره، عوض الاسترخاء في صالون بيته مهما كان فخما ومريحا.

Scanned by CamScanner

وتتدخل الصدف العجيبة في هذا الصباح، عندما كلمته هاتفيا أول مرة بعد لقائنا الأخير. هل بلغ حدسه من القوّة أن اكتشف ما اشتهته نفسي ؟

ـــ آلو عثمان ؟

ـــ أين أنت يا رجل وأين وعودك ؟ اسمع بسرعة ما سأقترحه عليك، ولا تعتذر أو تتملّص، فلن أقبل منك هذا أبدا.

ـــ قل يا سيدي، وسأرى.

ـــ سأقيم يوم الجمعة القادم مأدبة غداء تحت الخيام لخبراء أجانب جاءوا لتدشين نظام ريّ حديث اشتريناه منهم.

ـــ عظيم... هذه دعوة سلطانية لا يمكن رفضها.

ـــ ستتفرّج بالمناسبة على تكنولوجيا العالم المتقدم، وترى إلى أيّ مدى نستطيع الاستفادة منها.

ـــ صدفة عجيبة يا عثمان. لقد اشتهيت حضور مناسبة كهذه، فشكرا لك على إتاحة الفرصة لإنسان متخلف مثلي أن يرى بعض منجزات العالم المتحضّر.

ـــ أكثر من هذا سترى منجزاتنا أيضا... كل ما ستحتويه المائدة هو من إنتاج ضيعاتنا، بما في ذلك اللحم والخضر والفواكه، وهذا مدعاة فخر واعتزاز بما أنجزناه بفضل عمالنا وفلاحينا، وبمساعدة أصدقائنا وضيوفنا.

ـــ لا... من فضلك ! توقّف هنا واترك الخطبة ومحتوياتها من فخر واعتزاز وانجازاتنا ما انجازاتنا لتلقيها على ضيوفك.

أضع التليفون. أخرج إلى الشارع وأنا أكاد أشرق من الضحك.

Scanned by CamScanner

لما جلس المدعوّون لشرب الشاي في ظل أشجار الصفصاف الوارفة اختلى عامر بعثمان وسأله :

ـــ هل هذا المشروع حكومي بصورة كاملة ؟

ـــ نعم هو مشروع أنموذجي أردناه مثالا يحتذي به الفلاحون لاستعمال التقنيات الحديثة.

ـــ وهل يملكون المال اللازم لاقتناء التقنيات والآلات ؟

ـــ القروض متوفّرة، وما عليهم إلا أن يطلبوا متى شاءوا.

ـــ هؤلاء فلاحون صغار... أتظن التقنيات الحديثة مع ما تتطلبه من تمويلات تنفع في قطع الأرض الصغيرة، مع ضعف إنتاجها ؟

ـــ ما على أصحابها إلا أن يتجمّعوا ويتعاضدوا فيقوون على مجابهة المصاريف.

ـــ أتظنهم تهيّؤوا نفسيا وثقافيا لإنجاز هذا البرنامج ؟ أخشى أن تكون تحلم يا صديقي.

ـــ بل أنت الذي يركبك الشك في كل ما ترى. الناس تغيروا كثيرا منذ أن سافرت، ولذلك أنصحك باتخاذ مقاييس جديدة في حكمك على الأشياء.

ـــ بل أخشى أن تغترّ أنت وإدارتك بموضة البرامج المثالية والمشاريع النموذجية. دعكم من احتذاء البلدان المتلهفة على النموّ بأسرع وقت وبأي ثمن. القوالب الجاهزة لا تصلح للجميع سواسية. هي لا تعدو أن تكون نموذجا قد يمكن تطبيقه على نطاق واسع وقد لا يمكن. فما ثبت صلاحه للبعض، قد لا يصلح لدى آخرين.

ـــ ولم لا يمكن في رأيك ؟ ما دامت الدولة هي الراعية للمشاريع والباعثة لها فلا تخش ضرّا، كل شيء سيسير حسب مقاييس علمية دقيقة.

ـــ ولكن إلى متى تبقى الدولة هي الراعية، وهي القائمة على سير الأمور ؟ دلّوا الناس على طريق الإنتاج وحثوهم عليه بالعون والنصح، ولا تعوّدوهم العيش عالة على صدقات الحكومة.

ـــ شعبنا جاهل بأبسط التقنيات الحديثة، وما زالت أمامه عشرات السنين ليستعملها كما يجب... هل نكتفي بالفرجة والانتظار ؟

ـــ لم أقل هذا، وإنما أنصح بترشيد الشعب عوض أن تتولّوا كل الأمور نيابة عنه.

هزّ عثمان رأسه غير مقتنع برأي ضيفه، وتلفّت حواليه يتفقد المدعوين المنتشرين في الحديقة ملتذّين بدفء الشمس الساطعة. وبعد أن اطمأنّ إلى إحساس الجميع بالسعادة التفت إلى عامر سائلا :

ـــ صرّح بحقيقة مشاعرك... ولا تتفلسف كثيرا. أليس ما تحقق هنا شيئا رائعا ؟

ـــ رائع بالفعل، لا أقدر أن أنفي ذلك.

ـــ إذن لِمَ لا تشكرني عوض أن تتقمّص دور الأستاذ المتحذلق المغرم بتوزيع النصائح ؟

ـــ شكري لا ينفعك، ولا أنت تسعى إلى الحصول عليه، بقدر سعيك إلى نيل رضا رؤسائك، ورضا الدولة التي أعطتك المسؤولية ودفعت لك أجرك وأجر أعوانك.

ـــ ألا تغريك الفلاحة يا عامر ؟ يقولون أن أهل بلدنا كلهم فلاحون بالسليقة، وإنما ألهتهم حياة المدن عن مهنتهم الأصلية، وبقي الشوق إلى خدمة الأرض دفينا في خبايا النفوس. أنا مثلا وقعت في هواها، فمنذ أخذت مقسما من الأرض المستصلحة انشغلت به، حتى لم أعد أجد الوقت الكافي لنفسي ولأسرتي.

ـــ وها أنت فلاح يا عثمان... الله الله !

ـــ فلاح مبتدئ أو هاو إن شئت، ألا تريد اتباع طريقي ؟

ـــ أنا... ؟

ـــ ولم لا ؟ دع عنك الوظيف والتجارة والترحّل والتدريس وإضاعة الوقت بين النظريات والكتب. اغمس يدك في التربة وستشعر أن أحاسيسك تبدلت، وأن التحامك بالطبيعة غيّر مفاهيمك وأسلوب تعاملك مع الناس والأشياء.

ـــ وهل من أعطاك الأرض سيهبني مثلها وبنفس الشروط والتيسير ؟

ـــ سأفعل كل ما أستطيع من أجل صديقي العزيز. أعلن رغبتك وسترى ما سيتحقق في غمضة عين.

ـــ هل تفعل ذلك مع كل طالب ؟

ـــ قلت من أجل صديق عزيز. لا تعد إلى الهزل. إن مشروعنا هذا يوفّر كل المقوّمات الأساسية لانطلاق نشاط فلاحي مثمر في شكل خلايا أسرية، عمادها مسكن وقطعة أرض وتجهيزات فلاحية ونظام ريّ عصري، فما الذي ينقص بعد ذلك؟ المطلوب فقط أن تقتسم الأسرة العمل فيما بينها، وأن تجتهد لاستثمار ما وضع بين يديها من إمكانيات.

ـــ وماذا تدفع مقابل ذلك ؟

ـــ تدفع ثمن ما أخذت، ولكن بالتقسيط، ما عدا الأرض فإنها تبقى ملكا للدولة.

ـــ يرحم اللّه !

ـــ ماذا تقصد ؟ هل هذا عسير ؟

ـــ هذا ما كان يُفعل بالفلاح الصيني منذ آلاف السنين... يشقى ويتعب، وعند الحصاد أو جني الثمار يأتي صاحب الأرض أو تأتي الدولة لمقاسمته المحصول.

ـــ الدولة لا تقاسم، بل تسترجع ما دفعت، ليأخذ كل واحد حقه... أليس هذا عين العدل ؟

ـــ من واجب الدولة أن تعين وتساعد على الاستثمار، لا أن تنقلب بدورها إلى مستثمر، لا تهتم إلاّ بأخذ نصيبها مهما كانت أحوال ذلك الفلاح المدقع الذي احترق صيفا وغرق شتاء ليستنبت الأرض ويدفع عنها أخطار الجفاف والسيول وآفات الطبيعة. ذاد عنها الطيور والقوارض والحشرات، وحرس الثمار حتى تنضج وتستوي طيّبة للآكلين. عند ذلك يصطّف أمامه مالك الأرض وجامع الضرائب وأعوان البنوك المقرضة، ليأخذ كل منهم حصته دون أن يسألوه عن حاله وكيف قضى صيفه وشتاءه ؟... تذكّر، ألم تكن محلّة الباي قديما تقوم بنفس المهمة عند خروجها للمَجْبى ؟ ألم تملأ أذنيك شكوى الزّعيم المرّة من خحلّة زرّوق وما فعلته بفلاّحي الساحل ؟

ـــ شهيتك اليوم مفتوحة لإلقاء المحاضرات، لا لعقد الصفقات. ولا أظنك ستجد من يفهمك إذا بقيت تلقي الخطب في كل مكان، دون أن تستقرّ على حال وتمدّ يديك إلى عمل تنفع به الناس وتنتفع.

تهلل وجه بديعة عندما رأت عامر يدخل الوكالة وسألت متعجبة :

ـــ أين كنت طوال هذه المدّة ؟ منّيت نفسي أن أراك باستمرار، وإذا بك تغيب، ولا أحد يعلم أين.

ـــ لست في إقامة جبرية على ما أظن ؟

ـــ ومن قال هذا ؟

ـــ أليس البلد آمنا لا خوف على من يجوب أرجاءه ؟

ـــ بلا شك.

ـــ وهذا ما فعلت... تنقّلت كثيرا في الأيام الأخيرة، لأتأكد من صحّة هذا القول.

ـــ لا... لا أظن هذه نيّتك. اصدع بالحق، هل أخذتك سكّة العمل ؟

ـــ أخذتني سكّة الشوق إلى رؤية الأصدقاء.

ـــ تفرّقوا... أليس كذلك ؟

ـــ شذر مذر... لا جغرافيا فحسب، ولكن فكريا وروحيا واجتماعيا. فما وجدتُ واحدا منهم كما تركته.

ـــ وهل أنت باق كما تركوك... ألا تحدّث نفسك أحيانا بحقيقة مشاعرك لتراقب ما يطرأ عليها من تلوّن أو تبدّل ؟ ألم تحسّ بأنك تغيّرت ؟

ـــ وأنت ما تقولين ؟

سكتت هنيهة ونظرت من النافذة، ثم استدارت ناحيته وفاجأته بسؤال :

ـــ إذا أنت لم تتغيّر فادعني للعشاء الليلة كما دعوتني إلى كأس الشاي قديما.

فوجئ بالاقتراح، نظرت مباشرة في عينيه مستكنهة دواخله، ثم أضافت :

ـــ لا تتغير في المرء غير النوازع والأغراض، أما الطبع المجبول فيبقى. ولما كنت رجلا شهما منذ البداية فستبقى كذلك إلى النهاية. ولن تنسى طبعك هذا مهما دفعتك النوازع والأغراض إلى غيره.

ـــ أبهذا اللسان ينزلق الحرفاء في شباكك ؟

ـــ أتظنني أعاملهم بهذه الأخلاق الحميدة ؟

وضحكت بملء فيها مضيفة بعد فترة صمت :

ـــ لو ترى ما أعاني من سماجات طول نهاري لقلت عني مجاهدة صادقة الجهاد، ولكنه عمل قد اخترته وتلك أدواته.

ـــ سأجازيك على جهادك وصبرك بدعوتك للعشاء.

صفقت كطفلة صغيرة وقالت :

Scanned by CamScanner

ـــ لن أتغدّى لأبقى جائعة إلى المساء. ثم عليّ زيارة الحلاّقة. هل يمكنني معرفة المطعم حتى أختار ما أرتدي ؟

ـــ لماذا ... هل ستختارين فستانا من لون الأطباق أو متماشيا مع لون الستائر ؟ دعينا من هذه الأمور التافهة التي تعودت عليها من جماعتك، وانتظريني هذا المساء في الوكالة، ومنها نذهب سويّا إلى أي مكان تشتهين.

قاعة المطعم دافئة هادئة مزيّنة بأناقة وذوق، في أحد الأركان عازف بيانو يتمّم جمالية المكان، ويشيع فيه أنغاما رقيقة تنساب بين الموائد فتزيد في بهجة الروّاد، إلى جانب تلذذهم بالأكل الطيّب والخدمة المهذّبة.

تأمّل عامر ما حوله مليّا، وظهر عليه الارتياح والإعجاب وهو يتهيّأ للجلوس. سألته بديعة :

ـــ هل أعجبك المكان ؟

ـــ اختيارك موفّق، فلعلّ طعامه طيّب أيضا.

ـــ يتمتع هذا المحلّ بسمعة جيّدة، وصاحبه شديد الحرص عليها، جئته بضيوف كثار فلم أسمع منهم إلا الثناء على الطعام والخدمة، أما الديكور فهو واضح للعين. ألا تحسّ بالراحة ؟

ـــ تناسق كامل وذوق رفيع. أنت معروفة هنا حتى أن عازف البيانو حيّاك عند دخولك.

ـــ يعرفني الجميع ويقدمون لي خدمة ممتازة، أما العازف فله قصة أخرى.

كانت أنغام البيانو تملأ المكان ألحانا مختلفة، تجنّح طائرة فوق الرؤوس حينا، وتنسكب كقطرات الماء في جدول رقراق، يكاد الجالسون يحسونه تحت أقدامهم حينا آخر، والعازف في كلتا الحالتين يتمايل أمام آلته متوحّدا معها ومع الألحان، وكأنه بمفرده في القاعة.

أضافت بديعة بعد لحظة إنصات وتأمل :

ـــ انظر إليه كيف يكاد يذوب أمام البيانو... لا يمكن أن تخطئ العين حاله... إنه رجل عاشق.

ـــ وكيف عرفت ؟

ـــ هو لبناني قدم مع فرقة موسيقى للعمل في فندق مشهور. تعلّق بامرأة فقعد هنا. اقترن بمحبوبته فلم يفترقا من يومها، وعادت الفرقة من دونه.

ـــ هكذا بكل بساطة ؟

نظرت بديعة في عيني عامر بتركيز وحدّة وسألته :

ـــ ممّ تتعجّب ؟ نعم... هكذا بكل بساطة.

ـــ أتعجّب كيف يحدث هذا في أيامنا.

ـــ يحدث هذا في أيامنا، كما حدث في أيام آدم وحوّاء قبلنا، وكما سيحدث في أيام من سيأتي بعدنا. هذا أمر لا يخضع للتوقيت. للحبّ فضاء خاص به خارج الزمن والفصول الأربعة، ويتخذ طرقا غريبة لا ينتبه إليها الناس.

ـــ مثل ماذا ؟

ـــ يتسلل. يتسلوس. يتسرسب. لا تعرف من أين، ولا متى.

ـــ ما هذه التّعابير الغريبة ؟

ـــ لأن أمره أيضا غريب، وكذلك طرقه وأساليبه. يطلع لك من كتاب. يقفز عليك من أغنية. يمسك يدك وأنت تلمس ظفيرة شعر. وربما يفتح بابك صباحا ويدخل.

ـــ هكذا... ؟

ـــ لا... لا. ربما يقول لك صباح الخير ثم يدخل.

وجلجلت ضحكتها الصّريحة وهي ترى عينيه الثابتتين.

ـــ ها أنت ضليعة في شؤون الحب وظواهره.

ـــ أنا أنظر حولي، وأشاهد ما يحدث للمحبّين

ـــ ولا بدّ أنك شاهدت أحداثا كثيرة من مثل ما جرى للعازف.

ـــ أنا أحيا بين الناس، وقد كنت شاهدة على قصص كثيرة، أتوجّس أن يحدث لي مثلها يوما.

حذّرها عامر :

ـــ انتبهي جيدا... خذي أدوية واقية. إيّاك والوقوع في ذلك المرض الخطير.

أغمضت بديعة عينيها وكأنما دخلت في حلم :

ـــ أبدا... على عكس ما تقول أشتهي البقاء عرضة له طول عمري. مرّة يغمرني كنسمة صيف، ومرة يزلزلني كرعد الشتاء. مرّة يأتي على أطراف أصابعه، ومرة يقرع الباب بقوّة مرة ينام في حجري كطفل صغير، ومرة يقهقه عند رأسي كالغول العنيف. إنه السيّد دائما يفعل ما يريد... أليس هذا رأيك ؟

بقي عامر ينظر إليها صامتا... وأمام نظرته الجامدة سألته :

ـــ ألم تقل أنك عشقت أيضا ؟... كان أولى أن تعرف الحبّ وأحواله أكثر مني.

نظر في صحنه عالج سمكته. دون أن يجيب. قلّبها في الطبق وتردّد : هل يبدأ القطع من فوق أم تحت ؟ لا... الأفضل أن يشقها بالطول، وبدأ يغرس السكين من ناحية الرأس.

مدت بديعة يدها فأخذت الطبق بسرعة وشقت السمكة نصفين. نظفتها، أزالت عنها الشّوك. أعادت الطبق إلى عامر، وهو واضع ذقنه بين كفيه، صامتا متأمّلا.

ومضى بهما الليل وقد انبسطا غاية الانبساط بعد ذلك الحوار عن الحبّ، ولم ينشغلا بغير تبادل القصص المسلية. أنصتا إلى

الموسيقار متفاعلين مع عواطفه المشبوبة، ولم يكثرا من نبش الماضي كما هي عادتهما في اللقاءات السابقة...

وحين أوصلته إلى مسكنه قال لها وهو يفتح باب السيارة:

— لن أغيب عنك طويلا هذه المرّة.

— كلمني بالهاتف في الأوقات التي تعرفها.

— ليلة سعيدة إذن.

— قبّلني قبل أن تنزل.

نظر إليها متعجبا وقد بوغت بالطلب، انحنى ليقبّل وجنتيها لكنها قابلته بشفتيها المنفرجتين النديتين، فانطبعت القبلة طرية دافئة مصحوبة بنفس قوي يشبه لهاثا ساخنا. رفع رأسه فرأى بديعة مغمضة العينين، لم تشعر بانتهاء الحصّة. نزل بسرعة وأقفل الباب. اندفعت السيارة كأنما قفزت من مكانها، وعلا من داخلها صوت المسجلة، وصاحبنا واقف على الرصيف يسوّي معطفه، يمسح شاربه، يتفقد المفاتيح، ولا يدري إن كان عليه دخول البيت بعد أن انتهى المشهد.

هذه الليلة ليست كغيرها، النوم مستعص، والذكريات بحلوها ومرّها تلحّ في الحضور، أتقلّب في الفراش... ما أوحش هذا المكان بعد العشاء مع بديعة، ...بعد دفء المطعم الأنيق، وأنغام العازف العاشق، يحملكما في زورق طائر، ويزفكما لسعادة حرمتما منها طويلا.

لعلها لحظات اكتئاب تزول إذا أشرق الصباح وعادت معه شواغل الحياة، بل لعلها العاطفة ترقّ وتشفّ أحيانا فيضعف القلب وينشغل الفكر... بالي منشغل بحال بديعة، وكيف انقلبت في آخر السهرة إلى امرأة رقيقة

عذبة غير التي جالستني أول الليل، غير التي رأيتها تعمل في الوكالة أو تناقش الحرفاء.

جالستني في المطعم كصديق قديم، وتبادلنا النكت والقصص متناسين الماضي ومشاعره الملتهبة. غاب كل ذلك أوّل السهرة، وإذا به يهبّ فجأة في وجهينا في نهايتها.

ـــ قبّلني قبل أن تنزل !

ماذا حدث يا بديعة حتى تتوجّهي هكذا بالأمر، لا تورية ولا تلميحا؟ هل هو دين عليّ قضاؤه. هل الفكرة بنت اللحظة أم كان لها حساب وتخطيط؟

هل تمنّت أن يأتي الطلب مني فلما توانيت بادرت :«ها أنا أتولّى الأمر عنك. أنبهك وأتجرأ لأطلب منك تقبيلي... هكذا بسرعة ولهجة آمرة قبل أن تهزمني شجاعتي فتلجم لساني». وفعلت المفاجأة فعلها .

تعلّمتُ من الحياة معاني القبل جميعها، صرت أعرف مدلول كل واحدة ومقدار ما تحمله من كالوريات النوايا الطيّبة أو الخبيثة، جرّبت منها البريء والافتراسي، ولا بد الليلة قبل النوم أن أفهم معاني قبلة بديعة وما قصدته منها، فمنذ عدت والتقينا وأنا أحاول الاحتفاظ بمسافة فاصلة بيننا، كالطامع في نسيان مشاعره وماضيه المرتبط بذكرها، وقد يكون جفاء الطبع من كثرة الوحدة وطول الغربة، هو سبب برودتي، او لعله السنّ بدأ يدفعني نحو الرصانة والأناة عند كل تفكير وكل حركة.

بل لعلها هي التي تغيّرت في نظري من صورة المعشوقة القديمة المتأبيّة الممانعة، المكثرة من الإغراء ومن الدلال، إلى صورة المرأة المندفعة بتأثير رغبة ساديّة في تعذيب رجل أحبّها لصهر عواطفه واختبار معدنها.

أو لعلها هي أيضا، بعد أن قست عليها الحياة وتجربة الزواج الفاشل، تحوّلت الى انثى جامدة العاطفة ميتة الإحساس، ترى الرجال مصدر كل بلايا النساء، فهي لذلك تختلط بهم وتتعامل معهم ولكن ببرود...

وأخيرا لعل ظروف العمل أجبرتها على وضع الحواجز، حتى لا يقترب أحد من حدود رسمتها بين ما هو علاقة عمل وعلاقة شخصية.

لعل هذه الأسباب اجتمعت كلها وتحكمت في جوّ علاقتنا دون أن تتضح ملامحها. هناك أمور تشي بهذا عندما أكون في الوكالة، ولا تزول إلا عندما ألاقيها في مكان عام أو على مائدة طعام. لم تحرجني تلك الحواجز، ولم أتساءل مرة عن سبب وجودها لانشغالي بهموم وقضايا أخرى، وربما لنضوب عاطفتي، وربما أيضا لأني لم أبحث عن الحبيبة القديمة بقدر ما بحثت عن صديقة تذكّرني بأيام الشباب، وتحنّ مثلي إلى أمكنة وأزمنة وزّعناَ الرغبة وحبّ الحياة في ثناياها.

هل تتذكّرها يا عامر... هل تتذكّر ؟

مثل الغزال النافر تدقّ الأسفلت بالكعب العالي، فأخرج جريا من دكان الدراجات، أبحث عن مصدر الصوت،... نعم هي بلحفتها المصري تبين منها عينان وأهداب، ذقن مستدير، ولا شيء من بقية الوجه. وإنما هناك صدر يصرخ أنوثة متمردة. وهناك الكتف الأيمن يندفع متوترا إلى الأمام مع حركة الرجل اليمنى، يليه الكتف الأيسر يندفع بدوره إلى الأمام مع حركة الرجل اليسرى، ويتبادل الاثنان الحركة تقدما وتأخرا، في تساوق منسجم مع الخطوة ودقة الكعب واهتزازات

مدوّرات الجسم... وإذا الكل سمفونية تغمر سمعي وبصري، وتتسلل الى أعصابي، فتتوقف عندئذ حركة الكون... يهمد ضجيج الشارع وأصوات دكان الدراجات، لا يبقى في الدنيا سوى تلك الفتاة وموكبها الشامخ.

والآن هل أعلنت القبلة العابرة عن خروج المارد من القمقم وعودة الأشواق ؟... أم أن جوّ السهرة طرح التحفظ وأطلق النفس على سجيتها، فإذا بامرأة الأعمال تعثر على الأنثى الغائبة في أعماقها وتستدعيها في لحظة خاطفة، لا نوايا وراءها ولا مستقبل ينتظرها، لتروي ظمأها بقبلة من حبيب قديم ؟

أضع أصابعي على شفتي كالباحث عن أثر، ثم أتأملها كالباحث عن لون، وأقرّبها من أنفي كالطامع في رائحة، لكن لا أثر لشيء...

أتقلّب في الفراش مسهدا. هذا هو الأثر الباقي. هل فهمت ما تعنيه قبلة الليلة يا سي عامر ؟ اسحب الغطاء على رأسك واغتصب ساعة نوم، فهذا أولى لك.

دخل الشاعر المقهى يسبقه ضجيجه المعتاد وتحيات يوزعها على الجميع، وإذا به يفاجأ بوجود عامر ينتظره في أحد الأركان.

ناداه بصوت عال، ثم جرى ناحيته ليحتضنه مرحّبا ،وكأنه لم يره من سنين. طوى عامر الجريدة وبان عليه الجدّ وهو يطلب من الشاعر الجلوس هادئا بعض الوقت.

ـــ لماذا تطلب الهدوء ... هل أنت مريض ؟ ما بالك متوترا ؟

ـــ لست مريضا ولا أشكو شيئا، وإنما هو الشوق إليك.

ـــ نعم، هذه علتك دون شك، إنها الشوق، نعم... لا يعرف الشوق إلا من يكابده. لكن شوقك ليس لي أنا وإلا كنت أحسست بمثله.

وضحك ضحكة عالية.

ـــ ألا تكفّ عن المزاح ولو بعض الوقت ؟

ـــ أنا أمزح، نعم... لكن عندما أتحدث عن الشوق فلا. هات ما عندك... نعم، أنت مشتاق وعندك لوعة، ثم ماذا ؟

ـــ ما بالك هوّلت الأمر وفخّمت العبارات ؟ نعم أنا مشتاق إليك وهذا سبب زيارتي، فأنت صديق عزيز لا أصبر على فراقه طويلا. ولكن حوارنا سيدور حول أمر آخر.

ـــ هات... هات ما عندك ؟

ـــ تنقصني بعض المعلومات عن الحبّ. ما هي علاماته ؟

ـــ علامات ماذا ؟ عرفت من أول نظرة أنك غير طبيعي. ماذا جرى في الدنيا ؟ هات يا صبي الحان ما يرجعني إلى توازني. عن أي العلل سألتني يا صديقي ؟

ـــ عما أنت مصاب به وتعاني منه، وبما أن علتك مزمنة فلا بد أنك تعرف علاماتها الظاهرة والخفية، وكيف تبادئ الإنسان، هل تغشاه فجأة أم تنبت في وجدانه كالبذرة في الأرض، تنشقّ فتخرج منها زرعة تطلع ظاهر الأرض حيث النور والهواء، فتصير شجرا وأوراقا، وقد تعطي ثمرا أيضا.

ـــ اللّه اللّه... ما هذه الصورة الرائعة ؟ إنك شاعر من حيث لا تدري.

حرام أن تعيش بغير حبّ فإن أحببت لاَ تَخَفِ الملاما

فإن الموت أن نحيا عطاشا وإن العيـش أن نفنى غراما

أين أنت يا صبي الحان... أيها اللعين هات لنا المدام !.

ـــ ياليتني تعلمت على يديك... ولكنك كنت مشغولا عنّي.

ـــ كل منا كان مشغولا عن الآخر يا صاحبي. ثم ماذا كنت أستطيع تعليمك ؟ فأنا مازلت أتلقّى الدروس يوميا، لأنني أنسى كل يوم ما تعلمته البارحة. ومع ذلك خذ هذه المعلومة الأوّلية : لا وجود لعشق يشبه آخر. أما أنت بالذات فمتى كان لك قلب يعشق ؟ دع هذا الأمر لأصحابه يا أخي.

ـــ نعم، هذا أمر له أصحابه القادرون عليه ولا أدّعي أنني منهم، وإنما أردت الاطلاع على بعض أحواله الغريبة وظروفه العجيبة، تطرأ على المرء في حين غفلة منه فينكرها ولا يعرف مأتاها وأسبابها.

ـــ ولا بد أنك عرفت بعضها أو أحسست بمثلها، وإلاّ لما سألتني.

ـــ أيها العربيد، إما أنك تتباطأ في الفهم، أو أنك تستبق الكلام لاكتشاف خبايا الصدر، ولا تتمهل أو تترفق بمخاطبك.

ـــ سأصمت حتى أسمع آخر حديثك. أين أنت يا صبي الشؤم... جفّت حلوقنا.

ـــ إذا أصابك الحب دون أن تتهيّأ لاستقباله فما أبرز العلامات الدّالّة على ذلك ؟ هذا سؤال بسيط لا يتطلب شرحا مطوّلا.

ـــ في رأيك...

ـــ وأنت ... ماذا ترى ؟

ـــ لكل حالة حالها، ولكل أغنية موّالها.

ـــ ... عدنا !

ـــ مهلا... فأنا لم أعرفك رقيقا جدا رهيف الإحساس، ومع ذلك من يدري... فزمن المعجزات لم ينقرض بعد.

ـــ إذا كنت في زمن ما قد أحببت بكل جوارحك فتاة ظننت أن لا حياة لك بدونها، أرهقك حبّها وأشقاك، ثم حالت بينك وبينها أحداث وفراق طويل، حتى كدت تنساها، وحتى تكون هي قد نسيتك فعلا... ثم تتقابلان ثانية، وتكون أنت قد تغيّرت سنّا وتجربة، وتكون هي قد

تغيّرت بدورها وتقلبت بها الظروف والأحوال... فيقبل أحدكما الآخر على أنه صديق الصبّا أو أحد معارف الحيّ والجوار، وتنشأ ألفة لا ترقى إلى مستوى الحب الذي كان، ربّما هي الوداد والصداقة. فتسأل عنها إن غابت، وتسأل عنك بدورها وتهتمّ بشؤونك.

ـــ وما الغريب في ذلك؟ نوع من الحب الجليديّ المتوفّر حاليا في الأسواق.

ـــ لكنها ذات مساء وأنا أودعها طلبت مني أن أقبّلها.

ـــ آه ! يا وجعي ! هذه أنثى بحقّ حسنا فعلت... زلزلت الأرض تحت قدميك لعلّها تعيد إليك إنسانيتك المفقودة.

ـــ بل سهّدتني ليلة كاملة. أشعلت كل البراكين الخامدة.

ـــ هل عرفت سبب السُّهاد؟ كنت ناقما على نفسك، لائما عليها قناعتها ورخاوتها. كان عليك أن لا تكتفي بقبلة واحدة... بل أن لا تعود إلى فراشك وحيدا. قبلة فريدة وحيدة شريدة بلا أب ولا أمّ ولا أقارب ؟ ما هذا يا عامر ؟ أما أنت فأحد أجلاف العرب !

ـــ عاودتني صورتها القديمة، وعاودني التلهف إلى احتضانها. إلى الفرار بها قفزا فوق السطوح كما في الخرافات القديمة.

ـــ لكنك لم تفعل شيئا من ذلك، أنت رجل عجيب وحكايتك أعجب... ابتدأت قصّة حبك بخرافة وانتهت بخرافة... صبابة عطشى لم ترتو، وقبلة يتيمة فجّرت النبع المطمور.

ـــ لا تستهن بعواطف غيرك، ولا تجعلني أندم على أخذ رأيك.

ـــ وأنت أيضا لا تجعلني أضحك منك. كنت تحبها ثم نسيتها، ولكن هي بقيت تحبك، أونسيتك ثم عادت توقد عواطفها القديمة، وأشعرتك بذلك عند طلب القبلة، ولما استجبت لطلبها فكأنما قلت لها : نعم أنا أيضا عادت إليّ أشواقي.

ـــ استجابتي لطلبها هو سبب المشكلة.

ـــ أين المشكلة ؟ استجابة عفوية لطيفة، حركة رقيقة من رجل متحضّر. لماذا حساباتك طويلة لا تنتهي ؟

ـــ قاسيت من حبي لها ألما مرّا لا أرغب في أن يعود.

ـــ لا تعذّب نفسك ولا تتألم... إن أقبلت عليك حبيبتك فأقبل عليها مضاعفا، وإن أدبرت فاسلُها بغيرها... ودَاوِني بالتي كانت هي الداء. أين أنت يا أخبث الصبيان ؟

ـــ انظر أين طوّفت بي، وأنا لم أطلب منك إلا ما تعرفه من علائم الحب إذا أصاب لأول مرة، أو إذا أفاق من سبات.

ـــ اسمع مني كلمة شاعر... تلك علامات حنين إلى أيام شبابك الأولى، يوم عشقت أول مرّة. أنت مشتاق إلى ذاتك العاشقة، وتلك أطياف حبك القديم تتراءى لك وتدعوك إلى تحقيق ما فاتك قبلا. هكذا هو الحبّ، وهذه هي طباعه، أعرفه وأعرفها : يأتي دونما جلبة، يستعمل مفتاحه الخاص، يقول مساء الخير ويدخل. كمن يخرج لقضاء حاجة ويعود، ويرى البيت كما كان، فيوافق عليه، ويجلس في المقعد المريح الذي يعجبه متنهدا في بطء. هكذا وصفه كبار الشعراء. وإذا شئت زدتك. ولكن لماذا تهتم كثيرا بالتسميات والنعوت ؟

ـــ إذا أحسست بأمر غير عادي يجب أن أعرف ماهيته... لا بد من ذلك وإلا فلا راحة.

ـــ ولم تظنّه غير عادي ؟ إن النفس خزّان أسرار، وكل ما تحتويه طبيعي وناشئ منها، وانما الجهل فينا، لأننا لا نعود فترة بعد أخرى إلى ذواتنا نستقرئ ما فيها ونسأل عن مكنوناتها. « الوقت الذي عدمتك فيه ينعدم لما تأتي»، هذا ما يقوله شاعر قرطبي. لقد اختزن وجدانك العاطفة القديمة فظننتها اندثرت، وإذا بها تطفو على السطح بفعل القبلة المغتصبة في سيارة مظلمة مغلقة الأبواب. فماذا جرى ؟ معجزة... لما أتتك الحبيبة انعدم الوقت الذي عدمتها فيه...

زال من الزمن، ومن الذاكرة. عد إن شئت إلى حبيبتك الأولى أو ابحث عن غيرها، استمع لنصحي... لا تبق هي حالة فراغ. فذلك مهلكة والعياذ بالله.

تهتّك في الهوى ما شئت وامرح ولا تخش المغبّة والملاما
فما تجني سوى اللذات فيها ودع آلامها لمن استقاما
هي الأيام تسرع في خطاها فبادرها وهات لنا المداما

ـــ شكرا على نصائحك الغالية حتى وإن لم تفدني بشيء.

وقام الضيف ليغادر المقهى فأمسك الشاعر بكمّه ملحّا أن يبقى، ليصاحبه إلى بيت مطربة مولعة بشعره، وسيسمعان من غنائها بعضه ملحنا منغما توّ اللحظة، فتمنّع وطالب بحريته في الانصراف.

ـــ أما شعرك فأنا أعرفه وأحفظ جله، فما الجديد ؟

ـــ الجديد هو اللحن... هو الصوت العجيب الذي سيوصله إليك، هو الفم الذي سيخرج منه رقراقا كحباب الماء. الذهب يزداد حسنا إذا انتقش. اجلس أيها المحبّ الفاشل ودعني أكمل كأسي بهدوء.

ـــ لا تعد إلى مثل هذه الأوصاف وإلا غضبت منك... فأنا لست محبّا، ولم أدخل أي امتحان حتى أنجح أو أفشل.

ـــ لا يمكن فصل صفة المحب عن الإنسان. لا بد أن يحب المرء مثيله، فإن لم يجد أحبّ حيوانا أو جمادا، وقد يحب طعاما فيشتهيه ويطلبه دوما، وقد يقع في حب ذاته وهذا أسوأ أنواع الحبّ.

ـــ لا شيء من ذلك، فقد يكون الأطباء لقحوني بمصل مضادّ للحب، فصرت بمنجى منه دون أن أقصد.

ـــ فأنت إذن الربع الخالي من جزيرة العرب. لا... فإن فيها بعض حياة، بل أنت القطب المتجمد الجنوبي.

ـــ دع عنك الحديث عن الجغرافيا، وقم إلى موعدك.

ـــ ولكنك ستأتي معي، لامناص من سماع رأيك في تلحين شعري، إني محتاج إلى من يسمعني، لا أستطيع العيش بدون ذلك. في خطوة تالية سألحّن قصائدي بنفسي، وقد بدأت أتعلم السولفاج والعزف على العود.

واستمرّ الشاعر، حتى بعد خروجهما إلى الشارع، يشرح لصديقه خطته لإيصال شعره إلى سمع الجمهور في أبهى الصور وبأجمل الأصوات.

هل أنا السبب دوما في خيباتي ؟ لِمَ خوفي من مواجهة الموقف الصعب... من اختيار أحد أمرين... من الانحياز لأحد موقفين؟ لِمَ لا أقطع ولا أبتر ولا أبتُّ. لِمَ أرتاح للمنزلة بين المنزلتين وأستطيب العيش بين مدّ وجزر؟ ألأنّي بلا يقين؟ هل أنا قلق ؟... هل قلقي طبيعي متأصل... أم هي الصّروف والظروف؟

أستعرض مراحل حياتي فأجد فيها ما يبرّر ذلك السلوك بقدر كاف، وعوض أن ألعنها ألعن نفسا خانعة قانعة لم تحاول التبديل والتغيير.

تمنّيْت لو أن بديعة نسيت عشاءنا الأخير، وقبلة يتيمة فريدة، شريدة، وحيدة، بلا أمّ ولا أب ولا أقارب كما قال صاحبي الشاعر، طلبتها وهي لا تتصوّر أبدا أنها قبلة وداع، ذلك أنني سافرت بعدها مباشرة، واختفيت كما ظهرت.

أتردّد اليوم وقد عدت من السفر في اتخاذ القرار المناسب... أريد أن تتذكرني وأتمنى لو تنساني... أأذهب لألاقيها وأرى العتاب في عينيها، أم أحتمي بضباب النسيان حتى موعد رحيلي القادم ؟

دفعني التردّد نحو شارع الحرية... حيث مقاهي أخيها، وها أنا أراه وسط حلقة فنانين أو متطفّلين، خائضين كعادتهم في لغو ولغط لا ينتهي. أرى حلقة اليوم أكبر من سابقاتها وعدد أفرادها أكثر، فهل الظرف مناسب لأسأل الرجل عن أخته وأحوالها ؟ أتردّد... وفي نفس الوقت أحدس أن حالها لم يتغيّر مادام حال أخيها هو هو، حتى وإن اتسعت دائرة أصحابه ومريديه.

على امتداد الشارع الأطول في المدينة واجهات خاوية يغطي أرجاءها غبار خفيف، يمرّ بها الناس سراعا لا يشدّ فضولهم شيء، كأنما أصابتهم قناعة مفاجئة أو زهد طارئ فيما يبهج الحياة ويزيل رتابتها. كان المدّ الاشتراكي قد غطّى أنشطة السوق، وعمّم النظام التعاضدي على فروع الاقتصاد، فصار الحديث عن ذلك محور كل كلام ومركز كل اهتمام .

سأل عامر ابن عمه عن أثر ذلك في حياة الناس اليومية، وكانوا ساهرين في بيته، فضرب له مثلا بتاجر الحيّ صاحب الدكان العتيد على الناصية، ولكم اتخذاه نقطة التقائهما أيام الدراسة والتسكع، ومرصدا لمراقبة بنات الجيران في ترددهن عليه لقضاء الشؤون.

ـــ تسألني عن عمّ أحمد ؟ طيب... سأحكي لك عن حاله... وجدته ذات ليلة يسهر في « البوتنيار ». نعم يا سيدي... رأيته يعب الوسكي عبّا، وينفق على بنات الملهى بدون حساب.

ـــ عمّ أحمد العطار يسهر في كاباريه ؟

ـــ نعم عمّك أحمد المتقشف المتواضع، بهيئته وكدرونه الصوفي الأزلي يراقص بنات البوتنيار ويداعبهن، ويوزع عليهن المال والهدايا بكل سخاء، هل تصدّق ؟

ـــ هذه عملية انتحارية... هل عثرت عليه بمحض الصدفة ؟

ـــ وهل تظنني دعوته ؟ كان يسهر منفردا في زاوية وحوله البنات، ولا يجالس حرفاء المكان. كان موجودا وغائبا في ذات الوقت، حتى إذا سكر يبدأ في التهريج والصخب إلى درجة الإزعاج، فيأخذه الحارس بلطف إلى الباب.

ـــ عمّ أحمد في البوتنيار... لقد غدت مدينتكم سيركا كبيرا.

ـــ بلغ الرجل درجة اليأس الشديد بعد أن أجبر على إغلاق دكانه والانضمام إلى مجمّع تجاري.

ـــ هل قامت القيامة إذا طلب منه مثل ما طلب من غيره، هل هذا مدعاة للانتحار ؟

ـــ لا تتعجّب ! هناك من انتحروا فعلا. أي جسديّا، أما هو فقد باع بضائعه بأبخس الأثمان وطفق يبدّد رأس ماله يمنة ويسرة، ويلتهم اللذات كمن سينتهي عمره بعد ساعات.

ـــ علمت أيضا أن فلاحين كبارا وصغارا باعوا دوابّهم بأبخس الأثمان. تركوا ريفهم نازحين إلى المدن يجرجرون فيها بطالتهم. حركة يأس وطني.

ـــ حصل هذا في كل الجهات، وبصورة خاصّة في الساحل لما اقتلعت السلطة الزياتين بالقوة وضربت المعترضين بالسلاح.

ـــ ذكّرتني بالساحل. هل مازال صاحبنا مروان واليا هناك ؟

ضحك ابن عمي ضحكته الهادئة وسكت، فلما كرّرت السؤال بفضول أجاب :

ـــ لم يبذل في حملة تعميم التعاضد جهده المعروف، أبدى احترازا خفيّا، احتفظ برأيه بادئ الأمر، ثم لما قوي الضغط عليه من بعض الوزراء جاهر رئيس الدولة برأيه، فاستمع إليه بهدوء، وبعد أسبوع أقاله من منصبه.

ـــ هكذا بكل بساطة، ولم تشفع له خدماته السابقة.

ـــ بل لم تمض أشهر حتى لفّقت ضدّه تهمة سوء التصرّف في أملاك الدولة، ورمي به في السجن كأي صعلوك ممن كان يطاردهم.

ـــ ماذا تقول ؟ محاكمة وسجن ؟ هل هذا جدّ أم هزل ؟

ـــ ما بالك تهتز كأن في الأمر عجبا؟... إنّها عملية تأديب روتينية تنبه إلى التزام الخط كيف تفهم الالتزام إذن ؟

ـــ أي التزام... وأي خط ؟ هذا خلع بنطلون رجل ونتف شواربه، وفضيحة أمام الله والناس بعملية ملفّقة تسميها عملية تأديب روتينية. لم لا نعود إلى عهد الفلقة والعصا في الساحات العامة، أو ضرب الرؤوس بالسيف ؟

ـــ عندما تغضب وأنت من صنف القطط فإنك تخمش بأظافرك اللطيفة ولا يتجاوز جرحك الجلد، أما إذا كنت سبعا فإن ضربتك مهما خفّت تكتم النفس أو تفكّك الأعضاء. لاسلامة يا أخي إلا في الابتعاد عن مخلب السبع.

ـــ ما هي آخر أخباره اليوم ؟

ـــ ناله عفو في أحد الأعياد، فذهب إلى قريته وانزوى هناك.

ـــ لا بد من الذهاب إليه.

ـــ لا أظنه يقابلك، يودّ الآن أن ينساه الناس.

ـــ أنا لست من سائر الناس زرته في عزّه، فلا بدّ أن أزوره في نكبته.

خرج عامر مع ابن عمه يوما للتنزه، فقصدت بهما السيارة ناحية الضواحي الغربية، ولما كانا بمحاذاة قنوات الري على حافة الطريق تذكر صاحبنا مأدبة عثمان للضيوف الأجانب في تلك النواحي، فابتسم.

ـــ ماذا تذكرت ؟ لماذا تبتسم ؟

ـــ لو سمعت نصيحة مدير هذا المشروع الكبير الذي أمامك قنواته ومزارعه وآلات ريّه الضخمة على وادي مجردة لكنا ذاهبين الآن لتفقد مزرعتي، أو لقضاء يوم نزهة في منزلي الريفي.

ـــ هل هذه أحلام يقظة ؟

ـــ لا... لقد عرض عليّ عثمان بصورة جدية شراء مقسم من الأراضي المستصلحة ومعها مسكن صغير وبعض الماشية، فرفضت.

ضحك ابن العم ضحكة طويلة، مستغربا أن يرى قريبه يوما في صورة فلاح يركب جرارا أو يراقب عملية البذر، وعقّب على حديثه :

ـــ هل رفضت العرض لأنك تقرأ الغيب ؟ هل كنت تعرف أن الأرض ستخرج من يدك فيما بعد ؟

ـــ لا... بل لأنها لم تكن ستدخل يدي أصلا. كان المطلوب استصلاحها واستغلالها وتقاسم الأرباح مع إدارة المشروع. على أن تبقى الأرض دائما بيد الدولة.

ـــ وما يتم اليوم هو نفس الشيء، ولكن بأسلوب مغاير.

ـــ هل كان سيضحكك شكلي في صورة فلاح ؟

ـــ لا... بل سيضحكني أن أراك في شكل مغفل كبير.

وساقت الجولة الرجلين قريبا من المبنى الرئيسي للمشروع فقررا زيارة المدير. اقتبلهما الرجل بترحاب كبير، رغم انشغاله بالتحاور مع فريق موظفين ببدلات نظيفة وربطات عنق ملونة. همس ابن العم :

ـــ انظر... كأننا في أحد البنوك.

ـــ هل استكثرت عليهم النظافة ؟ البنك يخزّن الثروة، أما هؤلاء فيصنعونها.

ـــ لكنهم بدأوا الصرف قبل القبض على ما يظهر.

ـــ متى تتوقف عن النميمة يا رجل ؟

لم يردّ عليه وإنما سأل عثمان مداعبا :

ـــ هل مازال اقتراحك بمنحي قطعة أرض ساري المفعول ؟

ـــ أنت غريب الأطوار يا عامر. تغيب ليلةالقدر وتعود يوم القيامة. الطريقة تغيّرت... نحن الآن نجمّع لا نوزّع. فإذا شئت الانضمام إلينا قبلناك في إدارة التعاضدية عضوا مكلّفا بالتوجيه والتكوين. صرنا في حاجة أكيدة إلى مثقفين يرفعون درجة الوعي لدى المتعاضدين ويوسّعون آفاقهم. نحن بصدد قلب جذري لموقف الفلاح من الأرض وطريقة استثماره لها... انظر جيدا إلى المقاربة الاشتراكية لطرق الانتاج وسترى أن الأمر مختلفا تماما عما اعتدناه واعتاده آباؤنا وأجدادنا...

ـــ كفى يا عثمان... كفى أرجوك لا حاجة بنا إلى خطاب مطوّل. سأفكر في الأمر جديا إن قررت البقاء هذه المرة.

ـــ وهل ما زلت تترحّل ؟

ـــ أنا في حاجة دائمة إلى هواء جديد.

كلف المدير أحد الموظفين ليطوف بالزائرين أرجاء المزرعة ويطلعهما على الإنجازات، لكن اهتمامهما تركز فقط على الخضرة اليانعة واستنشاق الهوء النقي. قال ابن العم بلهجة ساخرة :

ـــ لو قبلت العرض هذه المرة فلن أضحك منك.

ـــ بالعكس، أولى بك أن تضحك مني أكثر هذه المرة.

ـــ كيف أسمح لنفسي بهذا وأنا أراك موظفا ساميا، لنقل بدرجة مدير مساعد، تقوم بإرشاد المتعاضدين ورفع درجة وعيهم ؟

نظر الضيف إلى ابن عمه شزرا، ففهم أنه لا يشجعه على الاستمرار في ذلك الهزل السخيف.

يسأل عامر صديقه الشاعر عندما التقيا في حانة « الكنيڤو » :

ـــ أعرف أنك كثير التردد على مقاهي شارع الحرية... ألم يصادفك أخو بديعة صاحب الشعر الطويل واللحية ذات الشأن ؟

ـــ تقصد ذلك الفنان الخيبان ؟ أراه في المقهى لا يغادره إلا قليلا. أما أنت فتقصد بسؤالك بديعة لا أخاها.

ـــ نعم. هي... ما أخبارها ؟

ـــ هل تريد رؤيتها، أم تريد أخبارها فقط؟ عجبي منك تحوزها فترميها. وتبتعد عنك فتحنّ إليها.

ـــ ألست في مثل حالي عند ما قلت في قصيدك عن راضية :

لكنني إذا رمت قربك لا أطيقك ثانيه
كم مرّة ألقاك ضاحكة ونفسي باكيه
فأكاد أهرب من لقاك ولا أطيقك ثانيه

ـــ أناوأنت عاشقان فاشلان... لسنا أهلا للحب الحقيقي.

ـــ لا تقلب مجلسنا موكب عزاء... أرجوك. خبّرني عن أحوال بديعة وسأحكم على نفسي فيما بعد بالفشل أو النجاح.

ـــ على راحتك. منذ اليوم أنت مسؤول عن نفسك. هي باقية في نفس العنوان، ولكن الوكالة العقارية تحوّلت إلى وكالة حفلات وتنظيم مهرجانات.

ـــ تبعا لنظام السوق.

ـــ هناك اتجاه إلى حذف جميع أنواع الوساطات.

ـــ هل تنظيم الحفلات والمهرجانات خارج نظام الوساطة ؟ هل هو من حلقات الإنتاج ؟

ـــ هي تشارك بواسطة وكالة الحفلات في الحملة الكبرى لمحو الأمية وتعليم الكبار... مشروع قومي ضخم.

ـــ هل هذه حملة من الحملات وهوجة من الهوجات ؟

ـــ لا... هذا مشروع كبير جدا، يحظى بعناية فائقة، وقد خُصّ بديوان وميزانية ضخمة.

ـــ هنا بيت القصيد، الميزانية الضخمة، ولذا توجهت نحوه أسماك القرش.

ـــ وهو يستقطب حاليا عددا وافرا من الكفاءات.

ـــ من بينها بديعة ووكالتها.

ـــ لا أعلم شيئا عن كفاءاتها، ولكنني لاحظت أن الديوان استعان بفنانين وشعراء وصحافيين، وأحيانا بلاعبي السيرك والحواة، ووجد منها قدرة على تجميعهم وتنظيم تحركهم بين المراكز، فاستفاد منها واستفادت هي بدورها.

ـــ وماذا يفعل بهم ؟

ـــ يأخذهم إلى الفلاحين في الحقول، وإلى العمال في المصانع ليرغّبهم في التعليم، ويشحن المادة التعليمية، في الأثناء، برافد ثقافي وترفيهي.

ـــ أي إنه محو الأمية بمعناه الشامل.

ـــ هذه هي النية، أما النتائج فتعرف طبعا أنها لن تظهر في أيام أو أسابيع.

ـــ وبديعة وأخوها غائصان في بحور اللؤلؤ والمرجان هذه ؟

ـــ على ذكر المرجان أعلمك أن طبرقة وعين دراهم نالا نصيب الأسد في هذه الحملة، فيهما ينتصب مصيفان للمتعلّمين والمدرّسين عامران بكل الطيبات. ألا تشتهي أن نزورهما لمدة يومين ؟ لي معرفة بمدير عين دراهم، وسنقيم عنده أحسن إقامة ونأكل أطيب طعام. وفي كل ليلة نشاهد حفلا فنيا أو مسرحية فكاهية مما ينظمه عزّوز وأخته.

لم يوافق عامر على الاقتراح في الحين، فأعاد الصديق الكرّة بعد أيام لما تقرر اشتراكه في قافلة ثقافية لزيارة المنطقة، وإلقاء الشعر في إحدى السهرات. رضخ لإلحاحه، وسارت القافلة كما جرى في إحدى السنوات الماضية، مع فارق اصطحابهم هذه المرّة فرقة موسيقية تضم مغنين ومغنيات.

لم يهدأ اللغط طوال الرحلة، ولم ينقطع تحرّك الشاعر من مكان إلى آخر، كأنه المسؤول عن أحوال الركاب وأمزجتهم ليكون مردود السهرة طيبا. وحين أمسكه رفيقه ليجلسه بجانبه بعض الوقت ارتمى على المقعد لاهثا وقال :

ـــ ألا تظن أننا نقوم بعمل وطني من الطراز الأول ؟

ـــ أعرف أنك ذاهب لإلقاء الشعر الفصيح على أناس أميين سوف لن يفقهوا شيئا مما تقول.

صاح محتجا :

ـــ غلط... يفهمونه ويفقهونه أكثر منك أيها المتعلم. أو على الأقل يحسّونه ويحسّون أنني بروليتاري مثلهم، أشاركهم آلامهم ومشاعرهم، فينفعلون مع كل حرف أقوله.

ـــ ولم لا تنتظر حتى يتعلموا ما به يفهمون شعرك ؟

ـــ محو الأمية يجب أن يكون شاملا، يزيل الغشاوة عن عقول الناس وأحاسيسهم وأذواقهم في نفس الوقت. فإذا اهتمّ المعلمون بتعليم القراءة والكتابة، فعلينا إكمال عملهم بتهذيب الذوق والارتقاء بالمشاعر. ألم تر فرقة الغناء والموسيقى التي تصاحبنا ؟ إنما هي والفرق المسرحية التي تدعى باستمرار لا يقصد بها التسلية والترفيه فقط.

ـــ اقتنعت الآن بخدماتكم الوطنية الجليلة... فما دوري أنا ؟

ـــ دورك هو التشجيع والمساندة لأولئك القائمين بالأعمال الوطنية الجليلة، وبذا يكون أجرك مثل أجرهم أو أكثر.

ـــ عند اللّه أم عند الناس ؟

قام غاضبا، وبلهجة مسرحية قال رافعا قبضته إلى أعلى :

ـــ عندي أنا فقط... ألا يكفيك ؟

ثم جلس وأحاط بذراعه كتفي صديقه متوددا :

ـــ يجب أن تؤمن بي، لأنني مخلص في كل ما أقول وافعل.

ردّ عليه صاحبه بنظرة من طرف عينيه وابتسم وهو يدندن بتخابث : « شيئان في بلدي... قد خيّبا أملي... يا للن، يا للن »، هل هذا هو كل ما عندك ؟ هل قلت شيئا عن البيروقراطية ؟ عن فقر الفلاّح ؟ عن تبخّر أحلامنا جميعا ؟ أين أنت من كل هذا ؟ تنهّد الشاعر عندئذ :

ـــ أنا خائف يا عامر. يسكنني رعب من مصيبة قادمة.

ثم جذب صديقه فقرّب أذنه من شفتيه وهمس له حتى لا يسمع الرّكاب :

ما زال منا البعض يخفي بالظهور مساوئه
في زيّ أهل الصدق يبدو، والحقيقة عاريه
بالأمس كان معي يغار على المبادي الساميه
ويحثّني ويهيب بي أن ثُر وقُلها دواية
واليوم لما صار يرفل في القصور العاليه
نسي المبادئ كلها، ألقى بها في هاويه

وعامر مصغ إليه، مشدود إلى أبيات يسمعها لأل مرّة، راغت بالشاعر إلى منعطف جديد غير منتظر، ولا مأمون العواقب.

تأمل أشجار الصفصاف العابرة خلف زجاج الحافلة، ثم ابتسم في وجه صاحبه وهو يقول :

ـــ هذا كلام رائع... أنا الآن أستعيدك... الآن أعرفك وقد عدت إلى جلدك وغادرت أرض النفاق ! هذا هو الشعر يا صاحبي الذي سألتك عنه يوم كنا في الكاف... هل تذكر ؟

وكان لا بد أن يلتقي الضيف ببديعة خلال السهرة، فهي المنظّمة بمساعدة أخيها، تقتصر مهمته على مرافقة المغنين لايفارقهم

لحظة، أما دفع الأجور ومراقبة الأداء وتوقيت العمل فمن اهتمام بديعة وحدها.

فوجئت بوجود عامر لما أقبلت تحيي الشاعر على مائدة العشاء، لكنها تماسكت وتصنّعت الرصانة والجدّية قائلة :

ـــ لم نكن نعلم باصطحابك ضيوفا هامّين، وإلا هيّأنا لهم استقبالا خاصا يليق بالمقام.

ـــ هل هذا يعني أن بقية الموجودين غير هامين؟ نحن في عهد اشتراكي، والجميع سواسية بلا تمييز.

ـــ أنا لا أوزع أرباح التعاضدية الآن لتذكرني بالعهد الاشتراكي، وإنما هذا الرجل لم يظهر ولم نره منذ سنوات... غاب بدون وداع، جاء على غير انتظار، صار ظهوره بيننا مثل الأحداث الكبرى. هو شخصيّة لا يمكنك حصرها في أمكنة ولا في مواقيت، فلا أقلّ من استقباله اليوم استقبالا يليق بصداقتكما الحميمة.

ـــ لوجه الحق وللتاريخ أعترف أنه سأل عنك يا بديعة، وبحرارة... تعالي اجلسي بيننا.

جلست، فاهتمّ عامر بتناول العشاء متحاشيا مبادلة جارته الحديث قبل أن يعرف ما تفكر فيه، وحمد اللّه على انشغالها مع صديقه بالتندر على باقي الضيوف. لكن ها أن الشاعر يستعيد نزقه، وينهض عن المائدة سريعا فيتركهما متواجهين، وها هي تضع منديلها بحركة عصبية وتنظر في عيني جارها سائلة :

ـــ هيه... تغيب أعواما... ثم تعود ثم تغيب ثانية وتعود... وليس لديك ما تقول ؟ ما نوع النواعير التي تدور في رأسك ؟

وضع بدوره المنديل ولكن بأناة وهدوء، وأجابها :

ـــ لم أستعدّ للقاء كهذا، ولا أرى الظرف مناسبا للحديث. على أنني مررت بمكتبك ولم أجد شجاعة كافية للدخول. أعدك بزيارة خاصة بعد رجوعنا.

ـــ هذا شرف عظيم، وحظ لم أحلم به.

قالت ذلك بابتسامة ساخرة، ثم استعادت ملامح صاحبة الأعمال مضيفة :

ـــ سأهتمّ بأمر إقامتك لتكون مريحة. وإن شئت قضاء يومين أو أكثر في المضيف فلك ذلك. وإن شئت العودة بسيارة خاصة عوض الحافلة فهذا متوفر أيضا. سهرة شيّقة.

وغادرته للاهتمام بعملها، تاركة الضيف في انحباسه وحيرته، لا يكاد يستجمع أفكاره.

في طريق العودة إلى العاصمة ثرثر الصديقان كثيرا، وأتوا على سيرة أناس من معارفهم، فشكر الشاعر شخصا أو اثنين، وذمّ عشرات ممن يرى أنهم لا يستحقون لفتة من ذي مروءة. إلى أن سأله صاحبه عن بديعة، وكيف تحوّلت من السمسرة العقارية إلى تعهّد الحفلات.

ـــ لا تتعجب، فكلها سمسرة. وقد جاء وقت مُنعت فيه الوسائط من كل نوع، وطُلب من بديعة الانضمام إلى أحد الهياكل المستحدثة، وكان لديها مشروع زواج لم يتمّ، فوجدت نفسها مختارة في مفترق الطرق، محبطة، موشكة على الانهيار. لكن أصدقاء لها وبعضا من معارفي ساعدوها على ربط علاقة بديوان محو الأمية الذي تكثف نشاطه في تلك الفترة، فلما تعاملت معه انطلقت من جديد.

ـــ قلت أنها فشلت في مشروع زواج... لماذا، ما السبب ؟

ـــ صفقة مشبوهة مع تاجر ليبي. لا أدري في نهاية الأمر هل لحسن حظها أم لسوئه لم تتم. لأن واحدة من مساعداتها الْتَوَتْ على الرجل لما رأت عنده مالا كثيرا وغباء أكثر، وأقنعته بتغيير خياره الأول لفائدتها. وهذا ما كان... اقتنع برأيها في النهاية وسافر معها بغاية

السّريّة، فلم تشعر بديعة إلا بعد أن حلّ العصفوران في طرابلس. صحيح أن وحيدة وهذا اسمها مازالت أطرى عودا من بديعة... ولكنها ذات طيش ودهاء، وسيرى صاحبها من ذلك ألوانا إن شاء الله.

ضرب الاسم في ذاكرة عامر بسرعة، إنها فتاة السفارة، صاحبة بديعة ورفيقتها المخلصة، لكنه تظاهر بعدم معرفتها، واكتفى بالتعجب :

ـــ ياه... الملعونة الخائنة. أتصوّر الآن شدة الصدمة على بديعة. صدمة تقصم الظهر... ياه المسكينة !

ـــ من... ؟

ـــ بديعة بالطبع !

نظر الشاعر في عيني صاحبه ليعرف كيف نزلت الرحمة فجأة على قلبه، ولكنه لم يفهم السّرّ، فأدار وجهه الى النافذة يتأمل الحقول.

بعد أيام تقرر موعد السفر، فذهب عامر لزيارة بديعة. قابلته ببرود لم يفاجئه. جلس هادئا كالتلميذ المذنب، ثم خاطبها :

ـــ جئت مستدركا لما حصل مني سابقا. بدأت أغيّر بعض عاداتي. جئت أقول لك إلى اللقاء هذه المرة، فإذا شئت اللوم فافعلي. أنا لا أهرب يا بديعة وإن كان الجميع يتهمونني بذلك. طبيعة حياتي غير مستقرة. أنا قبلتها بهذا الشكل وأتحمل تبعاتها، لكن أصدقائي وأنت منهم لا يقبلون، فماذا أصنع ؟

ـــ لا شيء حصل لنا العلم بذلك وانتهينا... لك أعذارك ولا يقدر أحد على لومك.

ـــ لكن قصة الزواج الذي لم يتم، كيف حدثت ؟ بل لماذا حدثت ؟

ـــ هل وصلتك جميع الأخبار ؟

ـــ أنا الذي سألت عنك... لأنني مهتم بأحوالك.

رشقت عينيها في وجه عامر وبقيت صامتة. لو لخّص كل ألوان الملامة لرآها متمثّلة في ذلك الوجه الصامت... في الشفتين المضمومتين على آهة تأبى الانطلاق.

ـــ حدّثيني عن وجيعتك... لا بد أنك تألمت كثيرا.

خيّل إليه أن دمعة ترقرقت في عينيها وأنها تمسكها بإصرار. واصل رجاءه وقد رقّ صوته حتى غدا مثل الهمس :

ـــ اعتبريني رفيق سفر، زميل دراسة، افرضي كوني صديقا قديما... إن شئت، أو جارًا. هل نسيت أننا أبناء حيّ واحد ؟

نطقت بعد تردّد ووجوم وعيناها إلى الأرض :

ـــ ليست قصة الزواج هي المهمة، وإنما ما سبقها وما تبعها. يجب أن تسمع قصة الحضيض الإنساني. لقد أوشكت على دخول السجن من أجل هذه الصفقة.

ـــ زواج أم صفقة ؟ الأمر غير واضح في ذهني.

ـــ أصل التفاهم انبنى على تسجيل شركتي في بلد خارجي، في ليبيا مثلا، لتكسب صفة الشركات الأجنبية، وهكذا لا يمسها قانون التعاضد أو تجميع الملكية.

ـــ قصدت الهروب مما يحدث.

ـــ ليس هروبا وإنما احتماء، أو إنقاذ لما يمكن انقاذه؟ هناك اتفاق على الزواج، واتفاق آخر على ضخ رأس مال جديد من طرف الزوج ليصبح شريكا. هذا أساس الاتفاق من البداية. لكن دخول تلك العاهرة شوّش كل المعطيات، وقد راقبتها حين علمت أنها تلعب بعقل الرجل البسيط، إلى أن عثرت عليها مختلية به في ملهى توسوس له وتتآمر، فضربتهما بما وقع تحت يدي من صحون وكؤوس، وتم استحضار الشرطة. كانت فضيحة كبيرة... عجبت فيما بعد من أمر نفسي ومن تصرّفي، ولكنني كنت في غاية الإحباط وفقدان الأمل.

نجوت من تبعات ما حدث بواسطة الأصدقاء الطيبين، وانتهى الأمر عند هذا الحدّ لحسن الحظ .

ـــ وماذا صنع المجرمان بعد ذلك ؟

ـــ رحلا بعد يومين إلى طرابلس كلصّين خائفين. وهذا أحسن ما صنعا، لأنني عندها شرعت أعيد حساباتي لأبدأ من جديد .

لم يعلق عامر بشيء. ابتسمت بديعة :

ـــ هذا ما جرى... يمكنك السفر مطمئنا. ها أنت تعلم التفاصيل، وتعلم أنني ما زلت قادرة على المواصلة.

فضّل التوجه إلى النافذة لتدخين سيجارة. وبعد صمت ثقيل التفت ناحيتها قائلا :

ـــ فعلا أنا مطمئن... سأسافر غدا... ها أنا أعلمك هذه المرة وأرجو أن ألقاك بخير إذا عدت.

مطت شفتيها، ومدّت يدا رخوة للسلام، دونما كلمة.

قال الضيف ليلتها لابن عمه :

ـــ ليتني لم أقابلها، وليتني ما ذهبت لتوديعها. كان منظري سخيفا وهي تبتسم مرة وتمط شفتيها مرة أخرى. أنا نادم.

ـــ ولماذا تندم ؟ لقد قمت بما يفعله أي رجل مهذب.

لم يقتنع بهذا الكلام... فبات مثقل القلب.

لسعيد جلسة « أكابريّة » في فندق أفريكا كل صباح. يقرأ الصحف، يقابل المعارف والأصحاب، ثم يمضي لقضاء شؤونه باقي النهار.

هذا ما عرفه عامر عن عادات صاحبه الجديدة، بعد أن فارق جنوبه وطلّق الفلاحة. طلّق زوجته القديمة أيضا، وبقي مع ذلك يزور المنطقة كل شهر، يتفقد الأحوال العامة بعد أن صار نائبا في

البرلمان، ومعها الأحوال الخاصة : معمل الخياطة التصديري وتديره ابنته سلمى، مدجنة ابنه الأكبر، متجر مواد البناء ويشرف عليه الابن الأصغر، وهي مؤسسات ركّزها وقسم مهماتها بين أولاده قبل انتقاله للسكنى بتونس.

بدا سعيد منهمكا في تقليب الصحف عندما وقف أمامه عامر محيّيا :

ـــ صباح الخير يا سيادة النائب المحترم !

رفع رأسه. رمى الجريدة جانبا. خلع النظارة المذهّبة وصاح مندهشا :

ـــ عامر ؟! من أين طلعت ؟ صرت كالأشباح... ترويك الأساطير ولا تراك العين !

ـــ ها أنا جئت لتكذيب الأساطير.

وقف سعيد يسلم، فبرز هندامه أنيقا بجبّة مقصّبة بالحرير والصوف، من تحتها فرملة وبدعية بالحرج والتطريز الرفيع. ثمة أيضا تناغم بين هيئة سعيد وأناقة الفندق، وهو خمسة نجوم اختاره سياسيون وأثرياء جدد مكان لقاءاتهم ومواعيدهم، مثلما كان مقهى الكازينو ملتقى كبار «البلديّة» والفلاحين سابقا. ولطالما تنقلوا بين أثاثه العتيق بالطربوش العصمانلي أو شواشي «الكبّيطة» الطويلة، وأحيانا بعمامة مطرّزة وشال الكشمير، تحته برنس «سوستي» معتبر.

يجلس سعيد نفس جلستهم وبنفس قيافتهم، في مكان لا يبعد سوى خطوات عن سابقه، لكن إطاره عصري جديد، يكثر فيه استعمال المعادن والبلاستيك والأضواء الساطعة.

ـــ اجلس يا عامر... اجلس. فمن سنوات لم أرك، ولم أسمع أخبارك !

ـــ منذ زيارتي إلى قفصة.

Scanned by CamScanner

ـــ زيارة لم أنسها أبدا... يا ليتك عدت مرات أخرى قبل أن نغلق الدكان ونتركه لأصحابه.

ـــ مازلت صاحب الدكان... أنت صاحب السوق كله الآن. ألم تصر نائب أمّة ؟ ثم إنك حاضر هناك وفاعل بفضل الذرية الصالحة كما علمتُ.

ـــ إذا أراد الله... لكن ما حك جلدك مثل ظفرك كما تعرف.

ـــ ألم تتذمّر من عيشك حين زرتك في الجنوب ؟... وها أنت مدلّلا في أحضان عروس جديدة، وفي كنف أصهار من العائلات البلدية المعروفة، وسيادتك ترفل في ثياب الحرير من صالون إلى صالون... وها أنت يا سعيد وكّرت في تونس من جديد.

ضحك سعيد ضحكة صافية وعقّب بلهجته الجنوبية :

ـــ توكيرة الحمام الجالي، مغطّي من قدّام عريان من تالي.

شاركه عامر الضحك، خاصة وقد استعاد صورته أيام الدراسة، وفكاهاته الساخرة من نفسه وأصحابه ثم سأل :

ـــ ولماذا أقفلت الدكان كما تقول ما دمت تعرف أنك ستندم ؟

ـــ أترضاني « بعد السيف نعلق منجل ؟ »، قلبوا المزرعة إلى تعاضدية ثم جاءوني بمدير، ثم كوّنوا هيئة استشارية وقسم محاسبة... صارت دائرة من دوائر الحكومة، عندها أحسست أن مكاني خارج اللعبة، فاستخلفت ابني لينوبني وانسحبت حافظا على نفسي ما بقي من ماء الوجه.

ـــ ومن يومها استبدلت مظاهر حياتك دفعة واحدة : العمل، والزوجة، والإقامة.

ـــ لا تبالغ !... ليس دفعة واحدة. بل جرّ بعضها بعضا. انتظر قليلا لأطلب ما تشرب.

وصفّق بيده مناديا، فجاءه شاب وسيم، انحنى خفيفا ثم انصرف دون أن يسمع عامر شيئا. وواصل سعيد.

Scanned by CamScanner

ـــ لم يبق لي أمر هام بعد تسليم الضيعة. أرادوني رئيسا للتعاضدية أو لاتحاد الفلاحين لكنني لم أرض ولم أقبل، ومن ثم فكّرت في الانطلاق الى فضاء أوسع ومهمات أعلى، فجاءت الانتخابات، ورُشّحت لها بتزكية عريضة. لم تكن التزكية بريئة، كانت نوعا من شراء الذمة وكفّ الشغب، تحته رغبة خفية في إبعادي عن الساحة، ولو لبعض الوقت. فهمت الشرط. ولذا صار مقامي بالعاصمة يطول، ويدفعني إلي « التّوكير » كما قلت، حتى هداني الله إلى شابة في عمر ابنتي سلمى، أنستني بأخلاقها ولطفها كل من تركتهم في قفصة.

ـــ هكذا بجرّة قلم ؟!

ـــ ليس عندي حلول وسط. أبى جميعهم الانتقال معي إلى تونس، الزوجة عائمة في تركة أبيها لا حديث لها طول اليوم غير جني التمر، بيع التمر، خزن التمر، والأولاد منصرفون إلى مشاريعهم، فرحون بالريح السهل المتدفق عليهم دون عناء يذكر.

ـــ البركة فيمن وضع الأساس، والفكرة في الراس !...

ـــ آه لو كانوا يحذقون مثل هذا الكلام الجميل... ولكنهم من جيل « هات »، ولا فضل لمن يعطي.

أنهى عامر كأس العصير واستعد للقيام.

ـــ اجلس يا هذا، لم تقل حرفا عن شؤونك.

ـــ لا شؤون لي ولا شجون... جئتكم زائرا ثم مغادرا، وقد اشتقت للقائك. وها هي فرصة لتوديعك لأنني مسافر غدا في الصباح الباكر.

ـــ مسافر... مغادر، على قلق كأنّ الريح تحتك، كما يقول المتنبّي.

ـــ تحتي وفوقي ومن كل جانب.

ـــ أما حان لراكب الريح أن يستريح ؟

ـــ أجبني ببديهتك الطبيعية : هل أنت مستريح ؟

Scanned by CamScanner

ـــ لكل واحد منّا مقاسه الخاص... أنا مثلا لا أصلح مقاسا لأحد غيري، ولا أنت أيضا. ولكن إن صنعت لنفسك قالبا يتناسب مع أفكارك وطلباتك استطعت الحصول على الراحة، أو لنقل على بعض التوازن والرضا.

ـــ هكذا... بدون اعتبار المناخ الاجتماعي والسياسي، والعوامل الانسانية والأجواء العالمية المحيطة ؟

ـــ لا ... لا يكون هذا بدون ذاك.

ـــ هنا بيت القصيد. ها أنت تكتشف أن العوامل الذاتية وحدها لا تكفي، فمهما استقمت وأصلحت من حالي لن أقدر على أي تغيير إذا لم أجد استجابة مما حولي : الناس، المؤسسات، الأجهزة، الثقافة السائدة، طرق التعامل. سأبقى فردًا منفردًا، صارخا في واد أو نافخا في رماد. ولذا فمطلبي الدائم هو أن يصلح الحال ويستقيم الرجال.

ـــ طلب معقول... لكن لن ينزل على مائدة من السماء... ماهي ضوابط الصلاح والاستقامة المطلوبين كشرط ؟... اجلس معنا نكرّس القوانين والنظم لتطبيقهما... لن يكون هذا في حال الغياب المعمّم... ولن يتمّ بالمراسلة.

ـــ لنترك بقية هذا الحوار إلى لقائنا القادم.

ـــ متى يا عامر... متى ؟

لا أدري متى يكون اللقاء... وداعا يا أصدقائي! أغادركم بنفس مكدّرة وقلب مهموم. أعرف مصدر أحزاني، وأجيد الهروب منها. ككل مرة أترك البلد وفي النفس سؤال : هل قريبا تصلح الحال ويستقيم الرجال، فأعود إليك يا بلد المحبوب ويطيب المقام؟

Scanned by CamScanner

لكنني، أكثر من كل المرات، أتركك يا بلدي مثقلا مكدوداً، وأهلك حَزَانَى. وأكثر من كل مرة أترك المحبوب غضبان حروداً. وداعا يا بديعة... يا امرأة عرّشت في القلب وعادت بصفحات العمر إلى أوله... ألا من نهاية يا حبيبتي لأيام القلق والترحّل؟

أحشر حقيبتي وأدفع جسمي إثرها في تاكسي بيبي صغير كعلبة سردين، وأطلب من سائق لم ينفض عن عينيه غبار النوم بعد، الانطلاق بسرعة نحو المطار.

لم تستيقظ العاصمة بعد، توسدت أسرارها ونامت. غرقت في أحلامها العسلية. أنظر من النافذة إلى الشوارع كالمودّع. تعيدني سيارة الأجرة إلى حلقة اغتراب جديدة.

هذيان الراديو يعلو على صوت المحرّك. ينمّق الأخبار الزّائفة، ثم يقذف مدائح وأذكاراً محرّفة عن سياقها، يأخذها من أولياء الله الى أولياء الناس، ممن لم تظهر لهم كرامات في أي جيل.

أطفال يسعون إلى المدرسة، بقّال يصفّ صناديقه الفارغة، حدّاد يفتح الدكان بكسل، عامل على درّاجة تتدلى منها سلّة غذائه. عربة بحمار فوقها أطفال وأحمال قليلة... هل هذا نازح آخر؟

باب سعدون، باب عبد السلام، باب العسل، باب الخضراء، أبواب مفتّحة، ونفوس ساكنيها منسدّة. حجارة محمّرة متآكلة، نخرها السوس من تحت، وغطاها طفيلي الأعشاب من فوق، واقفة صامتة تتفرج على ما يحدث.

ما فائدة التاريخ إن وقف يتفرج، ولم يدفع الناس الى الاعتبار والتحرك ؟ أجبني يا صديقي الشاعر.

Scanned by CamScanner

إيه أمسي... أيها الواقف كالبغل الحرون
أيها الجلمود في دربي ألقته السنون
أنا لا أحيا امتدادًا لأبي... لا لن أكون

وداعا أيها الصديق، يا مدرّس الحبّ وعاشق الحريّة. هل يكتب لنا اللقاء من جديد تحت سماء أصفى وفي هواء أنقى ؟

هذه شاحنة ضخمة تسدّ الأفق، تسد الطريق... سجّلتها ذاكرتي بالتصوير البطيء. تحمل خزّان وقود، قد تكون أفرغت حمولته في المطار، وقفلت عائدة. لكنني ذاهب الى نفس المطار، فلماذا تسدّ طريقي ؟ هل انفجرت إحدى عجلاتها ؟ هل توجّه نحوها سائقي الذي لم يستيقظ جيّدا ؟ هل اختلّت التاكسي الصدئة فأضاعت توازنها ؟

لم أعد مستعجلا أيها السائق. عُد بي حيث كنت... قف... لا أريد السفر. ارجع، لا تذهب بي الى المطار.

قزقز المطاط على الأسفلت. أقضم على أسناني بقوة، وبالتصوير البطيء انحشر التاكسي الصغير تحت الشاحنة، فضمته إلى بطنها، حشرته بين أجزائها وكأنما مضغته فاختلطت الحديدتان. وفجأة تتوقّف الصُّور. يأخذ تفكيري منحى آخر، وأغيب في الهذيان.

أعرف هذا الطريق مهما تغيّرت معالمه... قطعته ألف مرّة فكيف أنساه؟ معمل المصبّرات العريق يبدو مقفلا أو استبدل نشاطه بآخر، وتلك غابة الصفصاف المجاورة قد تلاصقت دورها الصغيرة في بنيان مرصوص، ومن هذه الطريق الجانبية كانت بداية الفيلا الفارسية... أسوار

Scanned by CamScanner

عالية طويلة تحيط بحديقة داغلة، تتوسطها فيلا شهيرة باسمها الفارسي الساحر... لا تراها العين ولكن سمعت عنها الأذن ما يكفي. أما مالكها فلم نعرف في شبابنا ونحن نمر بجانبها في رهبة من هو، ولا من يكون. فلعله معمّر أجنبيّ، أو موظف كبير أو تاجر ثريّ... ولم لا يكون وريث بني حفص أصحاب جنائن راس الطابية الشهيرة على أيامهم.

أقواس الحنايا تقطع الطريق، وبعدها يبدأ الفضاء الرحب والبطاح المهملة... ثم ظهر الحيّان العملاقان : «ابن خلدون» عن يمين و«التحرير» عن يسار بمعمارهما الريفي المتمدين... أنشئت دورهما على أنها انفرادية وإذا بها تنتهي مساكن جماعية متلاصقة، في صفوف تفتح أبوابها الحديدية على الشارع، وليس في الداخل سوى فناء صغير هو الحيّز الهوائيّ الوحيد لجميع النوافذ، لذا تعرف حركة البناء التوسّعي نشاطا لا يفتر، ترى آثاره على السطوح في شكل جدران ثلاثة تنتظر رابعا، أو أسلاك حديدية تمسك عرصات بلا سقف، وأحيانا أكوام آجر تنتظر يدا ترتّبها. قريتان منسوختان عن جلمة أو بوعرادة ألصقتا بخاصرة تونس كحلّ لإسكان النازحين.

بعد مسافة قصيرة يبدأ الفضاء ثانية، وينطلق الطريق مستويا نحو بنزرت. تخفض السيارة السرعة وتنعطف إلى اليمين، ثم تتوقف في طرف بطحاء مقسمة، تشقها مسارب وحجارات علامة تدل على أنها هيئت بعد للبناء والتعمير.

Scanned by CamScanner

أسكتت بديعة المحرك وقالت :

ـــ هذه هي قطعة الأرض... خمسة آلاف متر مهيّأة وجاهزة وبثمن معقول.

أجرى عامر بصره في كل الاتجاهات وسأل :

ـــ وقيمة المكان... مستقبله ؟

ـــ مضمون... عاصمة المستقبل ستنتقل إلى هناك على يمينك، ابتداء من تلك الربوة فما وراءها.

ـــ فلا تشمل هذه البقعة إذن ؟

ـــ هذه البقعة تأتي في الآخر، في السفح الثاني، بعيدا عن الزحمة وقلة الهواء، وغلاء الأسعار، سنبيعها للباحثين عن الهدوء من أمثالك... لنقل إنها ستكون من الضواحي.

ـــ هل بحثت الأمر مع المهندس ؟

ـــ ألم نتفق على العشاء معه الليلة ؟ تحاورنا في المبادئ فقط.

ـــ صحيح، نسيت الأمر... ربما لأنني لم أجع بعد.

ضحكت بديعة وسألت :

ـــ هل حبيبي راض عن شغلي ؟... هات قبلة إذن.

تظاهر عامر بالرصانة واحتج :

ـــ متى تنتهي صبيانياتك يا بديعة ؟

ـــ عندما ينتهي عشقي، ولاأظنه سيفعل، فأنا لم أشرع فيه إلا منذ قليل. أوغل في شيخوختك ما شئت، فلن أتبعك، وسنرى من يغلب في النهاية.

ـــ خذي قبلتك قبل أن أندم... وهيّا نعود قبل الظلام.

ـــ هيه... هل رأيت من يغلب في النهاية ؟

ـــ رأيت... ولم يبدأ الأمر اليوم فقط.

Scanned by CamScanner

رجعت السيارة من نفس الطريق، والراكبان يناقشان خطة تنفيذ المشروع الجديد وظروفها، ويعدّان حوارهما مع المهندس ساعة العشاء، بكثير من الجدّية، حتى لكأنهما حول مائدة الاجتماعات. ذلك أنهما أصبحا شريكين في الوكالة بعد تحويلها الى مؤسسة بعث عقاري وإيقاف صفقات السمسرة وتنظيم الحفلات والمهرجانات.

لثالث مرة تغيّر بديعة لافتة مكتبها، وتخضع نوعية نشاطها للظروف، لكنها في المرة الأخيرة اقتنعت بما تفعل، وآمنت بأنه الخط الصحيح الواجب اتّباعه منذ البداية. لكن هل كان عامر هنا... هل كان موجودًا بجانبها لتستند إليه وتستعين برأيه ؟

تدبّرت في السابق أمرها كما استطاعت، وكان لها حدود بما تستطيع. أما هذه المرة فهي تغزو عالم الأعمال والإنتاجية الكبيرة، لأن عامر هنا... أقنعها برأيه، وأفادها بخبرته في الحياة، وبرأس مال مهم أضافه إلى مدخراتها... ثم تقاسما العمل كشريكين، وأنجزا في عام واحد اثنين من الأحياء السّكنيّة الهامّة.

قالت بديعة عند وصولهما باب سعدون :

ـــ سأعود بك الى البيت لتأخذ راحتك قليلا، وأذهب لتفقد الوكالة. فهناك بعض الأمور المعلّقة... لن أغيب أكثر من ساعتين، وإن شئت أرسلت عزّوز ليقضي حاجاتك.

ـــ أرجوك... أبعدي عنّي عزّوز بقدر المستطاع.

ـــ أليس هو صهرك في المستقبل القريب وربما خال أولادك ؟

ـــ وهذا ما يجعلني أتردّد الى الآن في قبول زواجنا.

ـــ ها... ها ! فاتك وقت التردد، أموالك عندي، ومسكنك بيتي، أما قلبك فقد افتككته منك منذ عشرين سنة.

ابتسم عامر كالراضي بمصيره لكنه احتجّ مع ذلك :

ـــ هل لا بد من عزّوز... ألم تجدي أخا أحسن منه ؟

Scanned by CamScanner

ـــ يختار المرء أصدقاءه، جيرانه، شركاءه... أما الإخوة فأمرهم بيد الله.

ـــ أنا في كل الأحوال لست أخاه. لو كنت مكانك لأنكرت أمره وأطردته من دائرتي. ماذا صنع بحياته وأيامه غير تمسح دبره بكراسي المقاهي ؟ تمر بلاده بثلاثة زلازل مدمّرة والرجل يتفسّح في شارع الحرية، يستعرض شعره المتهدّل وشنبا مصفرّا بالتبغ مع لحية كلحية الرّبّي شمعون ومن حوله كلّ مأبون مأفون.

ـــ بكل عيوبه تلك كان لي أيام مرضك أحسن عون... لازمك في المستشفى، وأعان على تنقّلك بين مراكز التدريب. وهل لي قدرة على حملك من الفراش الى الحمّام إلى غرفة الجلوس لو لم يكن بجانبي... أم كنت تراني سأستعين برجل غريب ؟

ـــ لم أطلب منه ذلك... أنت التي طلبت.

ـــ يا عامر... يا عامر، قبل استحضار الكرسي المتحرك ألم تكن بحاجة ماسّة إليه ؟ ماذا أقول له اليوم ؟ عامر لم يعد يحتاج إليك، وهو لا يطيقك فلا تقترب منه في المستقبل.

ـــ صحيح أنا لم أعد في حاجة إليه... لكن لا تقولي له ذلك ولا تدفعيه نحوي. ابقيا أخوين كما شئتما، واتركاني وشأني.

دخلت السيارة الحديقة حتى لاصقت الفيرندة، فأسرعت بديعة بالنزول وجلب الكرسي المتحرك إلى باب عامر، فاستدار هذا بظهره وتزحزح منتقلا من السيّارة الى الكرسي بطريقة تدرّب عليها جيدا.

ـــ دعني أدخلك البيت وأعطيك عصيرا قبل الانصراف.

ـــ لا... سأدخل وحدي وآخذ العصير كما تعوّدت... اذهبي لتعودي مبكّرا. لا تهتمّي بأمري... لن أكسّر شيئا.

قبّلته من عنقه وأسرعت إلى السيارة.

Scanned by CamScanner

يتأمل عامر أشجار الحديقة وقد تجرّدت من أوراقها. بدت كالإنسان العاري يلفحه البرد ويخترق عظامه، أو كفراخ الطير يرتعش زغبها الرقيق. تختلج وتقرقف في انتظار جناح الأمّ ودفئه الرحيم. ما أرهفها وأقرب الخطر إليها... قال في نفسه وهو يرتشف العصير في جوّ السكون المخيّم على البيت.

يقفز الى حجره قط تركي غزير الفرو... يرمقه بعينين في لون الفيروز سائلا : « ما بك أيها الصديق ؟! » فيمشط شعره بأصابعه. يمرّر يده على الفرو الدافئ، والحيوان متلذذ بملمس اليد، وطراوة المفرش الصوفي على الركبتين.

سأحتاج إليك كثيرا أيها الماكر... تؤانسني، تنطّ على رجليّ المقطوعتين لتدفئهما... لتنسيني فقدهما... لتتناوم تحت لمس أصابعي، وتصيبني عدوى طمأنينتك واسترخائك.

أنا الكسيح المحتاج الى عون جميع الكائنات، سأطلب رفقتك كثيرا. مهما تدرّبت على الحركة الحرّة فسأحتاج الى غيري حتما دون رضى. ألم تسمع بأن عزّوز كان لي أيام المستشفى والنقاهة أكبر مساعد وأحسن عون؟ فما العيبُ أن أستعين بك أيضا أيها الحيوان القزم؟

يرفع القط رأسه لما توقفت حركة التمسيد، ينظر في عينيّ.

ـــ ماذا تريد أن أشرح لك أيضا؟ حطّ العصفور في القفص... مدّ يده يطلب ماء وزوانا وحنانا ورداء صوفيا لركبتيه، لينطّ فوقه حيوان وقح مثلك ويغنغن طلبا للنوم !

Scanned by CamScanner

ـــ لا يا عامر... ليس هذا ما حدث. أنت المسافر الأبديّ طالت بك الغربة، واشتاق إليك أهلك وأحبابك. أقسموا عليك أن تبقى، فتدخّل القدر ليبقيك ولا بدّ لكلّ زاجل من عودة. أنت طير يمام جريح، حطّ بجنب يمامة تنتظر، تقاوم اليأس بشجاعة. أوقفت نزيفه، مسحت جرحه، بلسمت نفسه، أجلسته على عرش مملكتها الصغيرة، وسلمته المفاتيح. لم تطلب منك سوى أن تساكنها بيتها وقلبها وآمالها... أن تشبك يدك بيدها لتعوّضك عن رجليك إذا عوّضتها عن وحدتها وخوفها من المستقبل بآمال جديدة، وبنيت معها أسرة طالما تمنّتها وما نالتها.

جلس المهندس الشاب مورّد الوجه، متهيئا لعشاء دسم ونقاش طويل هام مع مضيّفيه عامر وبديعة. هذه أوّل صفقة له معهما، ولذا هو متوتّر ومتشوّق لمعرفة أوفر بصاحبي العمل.

حين جاء النادل يتفقد المائدة ويوزع قوائم الطعام نهضت بديعة لتفقّد زينتها، فبقي الرجلان وجها لوجه.

ـــ حدثتني بديعة عن إبداعاتك المعمارية.

ـــ أشياء عادية لا أكثر، ليس بإمكاننا التأنّق والتألّق إلاّ في الإنجازات ذات المواصفات الخاصة. أما طلاّب المأوى الاقتصادي أو «المسكن الاجتماعي» كما صار يدعى، فهمّهم الأول هو الضغط على التكلفة بقدر الإمكان.

ـــ وبالطبع فقد راعيت هذا في مشروعنا.

ـــ طبعا... وقد تحدثنا أنا وشريكتك في الموضوع مطوّلا.

Scanned by CamScanner

ـــ وستتحدث معي أنا أيضا في لقاءاتنا بالوكالة، فأنا المهتم أساسا بالأوراق والحسابات والتصاميم، وستدبّر معك بديعة مراحل التنفيذ والعمل الميداني.

ـــ طبعا... طبعا. لن أطلب منك الكثير يا أستاذ عامر، فأنا مدرك لظروفك وأرجو أن تتعوّد عليها بمرور الوقت. علمت أنك أصبت في حادث طريق.

ـــ اكتفى ملاك الموت برجليّ فقط هذه المرة، في انتظار البقية... نزفت كثيرا، وتأخر جبر الكسور، فحصلت عفونات وجراحات، وتنقّل من مستشفى لآخر لمدة عام كامل.

ـــ سمعت التفاصيل من السيدة بديعة. إنها امرأة تتحدّى الصّعاب... شجاعة فعلا.

وصلت عندئذ بديعة وسحبت كرسيا وهي تسأل :

ـــ عن أي امرأة تتحدثان ؟

ـــ كنت أقول للمهندس أنه سيتعامل مع امرأة غلبت الموت وافتكت رجلا من أنيابه، حتى وإن بلا رجلين.

رفعت بديعة قبضتها علامة على الانتصار، وقالت :

ـــ الرجل واقف ينتظر... أما جعتما ؟

عالج المهندس سمكته وهو يفصّل الحديث عن دوراته التدريبية في بريطانيا والسويد، وعن طرق حديثة تعلّمها لتحقيق المعادلة المطلوبة : مسكن مريح بثمن معقول.

ـــ لم يكن للناس خيار في القديم إلا بين المسكن الفردي وتكاليفه الباهظة، أو العمارات الجماعية على ما فيها من نواقص. ثم ابتدعت المساكن المزدوجة وراجت سوقها، والآن جاءت مرحلة المساكن المثلثة وهي منتشرة في السويد وذات مزايا عديدة، أهمها

Scanned by CamScanner

مرافق أكثر في مساحة أقل، وهذا يعني توجيه المعمار نحو التراكب والتكعيب عوض الانبطاح والافتراش، والنتيجة اقتصاد للأرض والمواد والثمن.

ـــ ومشروعنا سينفّذ بهذه الطريقة... اليس كذلك ؟

ـــ نعم... إذا وافقتما، لقد أجريت تجارب ناجحة على هذا النمط، ولديّ دراسة بخصوص مشروعكم أنتم بالذات.

ـــ سنطلب منك إجازة أسبوع لأننا سنتزوّج ، ثم تعال عندي في المكتب ومعك كل أوراقك.

ـــ مبروك... لم تشعريني بالحدث السعيد المنتظر يا مدام.

ـــ زواج عجائز... ليس فيه ما يبهر.

ـــ ها قد بدأت الشركة نشاطها بالإنجازات الكبرى، ألف مبروك.

رفعت الصحون، وحضرت الفواكه، فقال عامر وهو ينظر إلى حبات الموز تزين الطبق :

ـــ دخلتم زمن الوفرة أيها الناس... بدأ توريد الغلال إلى تونس، أمّ الغلال.

ـــ ليست أمّ كلّ الغلال، فهناك غلال لم تظهر في السوق منذ سنوات. قالت بديعة.

أضاف المهندس الشاب مبتهجا :

ـــ منذ عهد قريب لم تختف الغلال فقط... بل اختفت أزرار الثياب وأمواس الحلاقة ومصابيح الكهرباء، وهذا لم يعد مقبولا في عهد اقتصاد حرّ منفتح، عماده أنتج واستهلك.

ـــ تقصد عهد استهلاك بلا ضوابط ؟ سأل عامر.

ـــ لا... ليس هذا ما أعنيه.

ـــ هي تجربة أخرى على كل حال، عساها تكون أحسن من سابقتها. أضافت بديعة.

Scanned by CamScanner

تنهّد عامر وهو ينادي النادل :

ـــ جرّبوا... جرّبوا، أعانكم الله. كم رقم التجربة الجديدة ؟

ـــ الثالثة، قالت بديعة ضاحكة... أحياكم الله لغيرها.

احتجّ المهندس وهو ينفض يديه من المائدة :

ـــ لا يا أختي العزيزة... جيلنا قليل الصبر، لن يقبل : « امش واسكت » كما جرى عليكم. جرّب، جرّب !... هل النّاس فئران مخابر ؟ ذلك عهدكم أنتم الذين رضيتم بالتجارب ساكتين... لا بل مصفّقين وهاتفين.

دفع عامر كرسيه إلى الوراء وهو يخاطب الشاب :

ـــ وعلى هذا يحسن بكم بداية التدرّب نفسيا على ما حدث لمن قبلكم. أنتم فئران المخابر المقبلة.

ـــ لا ياسي عامر... ذهب الجيل الذي قلع أشجار الزيتون وهو يستقفر سرّا. نحن من جيل لا يتبعك إلا إذا اقتنع برأيك.

ـــ لا تستعجل... سنرى، سوف نرى !

وعندما كانوا يغادرون المطعم دفع المهندس الشاب كرسيّ عامر نحو الباب، فأشار عليه بالاقتراب من فمه قليلا :

ـــ أنت خبير هندسي ممتاز لكنك لم تهتم كثيرا بالتاريخ، أو لم تجد الوقت الكافي، لقراءته. لذا أفيدك بما قاله ابن خلدون عن أهل هذا المغرب الكبير، ومنهم قبيلتك وعشيرتك وأهلك.

ـــ وماذا قال ؟!...

ـــ قال سَنَدُهُمْ مقطوع، لا يأخذ اللاّحق فيهم عن السّابق.

ـــ معنى هذا بلهجتنا : « ما يتربّاوش ! »

ـــ وبالعربي الفصيح لا يتّعظون بما جرى لغيرهم. يخطئ الأجداد فيعيد الأحفاد نفس الأخطاء القديمة. كل جيل يدعي أنه صاحب الحقّ المبين وأن التاريخ يبدأ منه. انظر إلى جيراننا كيف بعد أن

Scanned by CamScanner

تفرّجوا على خيبتنا طويلا قالوا هات نجرّب نحن أيضا... وبدأوا بتعميم الاشتراكية عام أو قفنا ناسها وأعلنّا إفلاسها.

ـــ إيه والله صحيح... لم أنتبه إلى هذا التوقيت.

ـــ يبدو أنك لا تهتم لا بالتاريخ ولا بالحاضر، انتبه أيها الشاب !

ضحكت بديعة وهي تفتح لهما الباب وردعت عامر :

ـــ لا تمارس على الرجل أستاذيتك الليلة... فهو ضيفك!

مرّ عامان على حادث السيارة. وتقدم مشروع عامر وبديعة شوطا. أتت ثماره سريعة في جوّ انفتحت فيه أبوابُ الاسترزاق على مصاريعها، وأقلعت مراكب البحث عن الرّبح والإثراء السّريع لتصطاد بعيدا وعميقا. حينها قرر الشريكان عقد زواجهما في حفل بيتي، ضم ابن العم والأصدقاء المقربين مثل عثمان وسعيد، وغاب الشاعر لخروجه في هجرة قد تطول. اختنق المسكين في الجوّ العكر، وساءت حالته الصحية والنفسية، فكان أن تسلّل أثناء مرض عامر كالماء من بين الأصابع، تماما كما فعل صاحبه من قبل. تذكره عامر وتألّم لغيابه، تذكّر قلقه الدائم ونفسه العزيزة، وورد على ذهنه آخر ما نظم :

يا رفاقي ! دربنا مدلهمّ علّموني المسير عبر الضّباب
أيّ ضوء لمدلج مستغيــث وغريب ومعطش في يباب

وحدّث نفسه كأنه يخاطبه :

ـــ ستشبع غربة وعطشا أيها الرفيق... اسألني !

مال سعيد على صاحبه :

ـــ لا تتجهّم يوم زفافك... انظر هذه برقية من مروان.

ـــ هل تذكّرنا العاقّ ؟... تركني في مرضي وخرج يجري بمجرّد أن لوّحوا له بالسفارة.

Scanned by CamScanner

ـــ لبّى نداء الواجب، ها هو يهنئك ويرجو لك السعادة.

تنهّد عامر قائلا :

ـــ أحّط رحالي فيحلو لأحبابي السّفر !

ردّ عليه سعيد ممازحا :

ـــ إن ركود الماء يفسده...

قال عثمان :

ـــ ليت حظي من حظه، فقد مللت القعود.

أسكته عامر :

ـــ لكنك لم تملّ عدّ النقود.

أضاف سعيد :

ـــ كيف تملّ وأنت رجل تجيد كل الألعاب، وتتحرك بالراحة في كل العهود ؟... اهتمّ بآلاتك الفلاحية والتجهيزات المستوردة وزوّد بها من يريد... ولا عليك نجحت السياسة الفلاحية أم لم تنجح، فالضفّة التي أرسيت فيها أسلم وأكثر أمانا من انتظار أمطار السماء.

ضحك عثمان وعلّق على رأي صاحبه :

ـــ حتى وإن لم تحتج آلاتي إلى المطر فإنها ستبقى مركونة لا تباع في عام العسر والجفاف.

عقّب سعيد بلهجته الخاصة :

ـــ أحمد الله على خروجي منها سالما.

سأله عامر :

ـــ إلى أين خرجت ؟ لا أحد يذهب بعيدا عن الفلاحة في هذا البلد. حاول الناس وجرّبوا فما استطاعوا... إلا إذا حدث انقلاب كامل في مستقبل الأيام. انقلاب كامل يستبدل المجتمع الزراعي بمجتمع صناعيّ، ولكن هذا غير مضمون العواقب مع ذلك.

Scanned by CamScanner

صاح سعيد منزعجا :

ـــ لا قدّر الله يا أخي... دعنا من حديث الانقلابات. تفاءل خيرا يوم زفافك يا عامر.

نادى كاتب العدل على الشاهدين، وهو يقلّب أوراق دفتره الضخم، أشار عامر إلى ابن عمه أن يتقدم للامضاء، وقامت بديعة إلى باب المطبخ ونادت أخاها.

ظهر عزّوز في إطار الباب. أنيقا مقصوص الشعر حليق اللحية. عليه حلّة جديدة غامقة بربطة عنق زاهية الألوان.

ابتسم عزّوز لصهره الجديد فالتمعت عيناه الشديدتا السواد كما كانتا في القديم. ومضت في ذهن عامر صورة الشاب العنيف يلقيه أرضا ليضربه، ومرّت بخاطره أيضا صورة عزوز وهو يتفاحج بين المقاهي متعطّلا متبطّلا، رثّ الهندام طويل اللحية والشعر.

« هل هو يتملّقني... أم هو مبتهج لزواج أخته ؟ » هكذا سأل عامر نفسه وهو يحاول طرد الذكريات.

ابتسم عزّوز بطيبة وهو يتقدم نحو كاتب العدل متمهّلا. موقف لم ينل رضا عامر، ولا أنهى شكوكه في حقيقة ما أظهره صهره بمناسبة الاحتفال.

« هل مسّ التغيير جوهره ومعدنه، كما مسّ الشعر واللحية والهندام. هل تخلّى عن لؤمه وسخافة روحه نهائيا ؟ »، عاد عامر يسأل نفسه.

وقف عزّوز آخر الأمر وسط الحلقة، فنظر عامر الى ابتسامته العريضة مليا وهو يحاور نفسه ويجاهدها : « يا عامر... يا عامر، متى ستلبسك الحضارة ؟ إن رضيت بوطن عليك أن ترضى بكل من فيه ! » قال هذا... ثم أفسح له مكانا بجانبه.

Scanned by CamScanner

استرجع يا عامر قُبلتك القديمة... استعد من بديعة ما أخذته منك ذات ليلة في سيارة مغلقة. هل نسيت قبلة سمّاها صديقك الشاعر اليتيمة؟ استرجعها وأنجب منها قبيلة كاملة تتوزع على كل هضاب الحبيبة ووهادها.

انها تستنفر حواسّك وتوقظ في القلب أشواقه القديمة، فاستعد شراهتك للحياة، ودع بديعة المتجلية تعود بك الى طرائقك القديمة في مضاجعة الانثى، كما أعادت تدريبك على النوم والجلوس.

اغزُها بكل عطش الأيام المنفلتة، واتركها تستلهم من كل عاشقات التاريخ دورها الجديد في إيقاظ نار المضجع وقيادة معاركه. دعها تقوم بدور الزوجة والممرضة والمدرّبة كما فعلت وتفعل منذ أيام الحادثة.

استعاد جسدي المكلوم حيويته، وتمام استعداده للنّزال، وبهذا أضأنا أنا وبديعة ليالي زفافنا، معيدين عقارب الساعة إلى أيام الزاوية البكرية. بلمس اليد هذه المرة بدل العين أرفع الخمار، أتملّى الوجه الجميل والرموش المرفرفة كالفراش المفزوع. أنزع اللحفة عن الكتفين والشّعر فينهمر شلال مسك وعطور. أمد أصابعي لفكّ الأزرار... وأفتح كتاب عشقي المكبوت لأقرأه سطرا سطرا.

وحين تأتي الحبيبة من مركز الراهبات تختطف الشّابّ الخجول الواقف بدكان العجلاتي. تجرّده من تردّده وتغمس أعضاءه كلها، دون استثناء، في بحر عشق خبأته سنين... تبتلعه كأنما تودّ أن تحبل به لتلده من جديد.

لكأنما عادت عقارب الساعة فعلا إلى ذلك الزمن، وكأنني لم أغترب ولم أعد، وكأن بديعة مازالت عذراء لم

Scanned by CamScanner

تتزوّج، وكأنني لم أذق من عسل الدنيا وحنظلها شيئا. لكأننا وُجدنا بفعل سحريّ في ذلك الشارع العتيق، وقد اختفى مركز التدريب والدكان وصخب الأصدقاء. جئنا نُشهد مسرح حبنا الأول على انبعاث الهوى من جديد مطالبا بحقّ البقاء، مقاوما للأيام والمحن.

إني هنا حيث توفّرت ملذّات الجسم والروح. وهذه هي قرارة الموج.. فهل لديك خيار آخر أيها القط الكسول ؟

أجذب أذن القط التركي فيرتعش مذعورا. يخمش يدي بتكاسل، ولو رفع الصوت لسمعته يتأفّف.

تقدم عزّوز أنيقا رشيقا، كما كان يوم زفاف أخته، شق ممرّ شركة عثمان الفلاحية يلتمع شعره وحذاؤه وما بينهما تحت « سبوت » الضوء. أومأ برأسه إلى مكتب المدير العام، فوقفت السكرتيرة قائلة : « تفضل لا أحد عنده ». غاص الحذاء الجديد في الموكيت ويد عزّوز تسلم بحرارة على عثمان :

ـــ كيف حال سيادة المدير العام ؟

ـــ بخير... جئت في الوقت المناسب. كنت أفكّر في إرسال سلّة زهور بواسطة السائق.

ـــ إلى من ؟

ـــ إلى مطربتنا الرقيقة التي وهبتنا في بيتها سهرة لا تُنسى.

ـــ صحيح... إنها أهل لذلك وأكثر.

ـــ لكنني لم أعرف كيف أدلّ السّائق على العنوان.

ـــ سأرافقه بنفسي، لا تشغل بالك بالموضوع.

ـــ لا تفيها الزهور حقّها، ولا تعبّر عن مشاعري كلها. غنّت لنا وحدنا وبالغت في إكرامنا... يبدو أنها تكنّ لك مودّة خاصة.

Scanned by CamScanner

ـــ هي هكذا دائما، طيبة وكريمة وتحسن الصُّحبة، لكن مزاجها بالأمس كان في أحسن الحالات.

ـــ بسبب حفلتها الناجحة في باريس ؟

ـ بل في أشهر مسارح باريس. وهذا انتصار رائع في حد ذاته. هي تصعد وتصعد هذه الأيام... هل تتصوّر أن أكثر من ساعدها ووقف الى جانبها هو صاحبك مروان.

ـــ سمعت شيئا من هذا ولم أصدّقه.

ـــ عليك أن تصدّق إذن. بل إنه احتكرها لنفسه زمنا. غمرها بنعمائه ووهبها كل ما طلبت، وفي نفس الوقت ضرب حولها حصارا لا يُخرق. أليس في إبعاده سفيرا رحمة للبلاد والعباد؟

جلجلت ضحكة عثمان، وشتم عزّوز لاغتيابه الرجل، فاحتجّ :

ـــ أتظنني أبالغ ؟! اسأل من تشاء من معارفك المتّصلين بالميدان الفنّي وستعلم الحقيقة. فأيام صولته وجبروته لا نكاد نتعرف على واحدة من الغواني الصاعدات إلاّ وتأتينا إشارات التحذير بعدم الاقتراب. أما إذا كنا بالساحل أو الوطن القبلي فهو كالوعل الشّرس، يحمي مرتع صيده بالقرون المسنّنة يضرب بها جهرا وخفاء.

ـــ حتى لسانك مسنّن يا عزوز... ها هو قد سافر وترك لك المرتع والمربع، فالعب كما تريد.

دخلت السكرتيرة بالقهوة، والرجلان منبسطان بين ضحك ومزاح. وكانت الفرصة مواتية ليطلب عزّوز مساعدة للفنانة الشهيرة على شراء آلات فلاحية لمزرعتها بالتقسيط المريح. موضّحا أنها أرض زراعية من تركات أيام التعاضد المجيدة، يسّر لها مروان شراءها بسعر فيه كثير من الحب والمهاودة. ولكنها تفتقر إلى أبسط التجهيزات. قال عثمان بأريحية :

ـــ نحن ننوب أصحابنا ونكرم أحبابهم.

Scanned by CamScanner

ـــ وإلاّ بقي المرتع فارغا.

وضحك الرجلان ثانية.

من يوم زفاف أخته قرّر عزّوز أن يتغيّر ويغيّر نمط حياته. اختفى من شارع الحرية، ومن حلقات معارفه القدامى، محوّلا اهتمامه إلى أصدقاء صهره الجديد.

تقرّب من عثمان بوسائل كثيرة، وخدمه تطوّعا، حتى صار موضع ثقته، ثم جليسا مواظبا، ونديما يتظرف به في لقاءات المؤانسة مع الخلاّن.

وقد علم أن لعثمان أختا مترمّلة فخطبها منه دون أن يراها، ولم يرغّبه فيها سوى علمه بأنها ورثت من زوجها عقارات هامة، وأنها ستزيد بالمصاهرة اقترابه من صديقه الجديد.

حين كان الرجلان ذاهبين في السيارة الفخمة للشركة إلى إحدى السهرات، تنحنح عزوز وفرك يديه استعدادا لخوض موضوعه الخاص جدا :

ـــ أعلمتني منذ أيام أن العائلة اقترحت تأخير موعد الزفاف إلى الخريف. هل أنت موافق على ذلك ؟

ـــ إنه اقتراحي أنا ووافق عليه الجميع، لأن إنشاء المحل الجديد « بريكولاج » سيأخذ منا وقتا وجهدا ليكون جاهزا خلال الصيف. هل ستكتفي بالفرجة ؟ ألست طرفا في المشروع ؟

ـــ طبعا... طبعا لكن دوري يأتي حين يبدأ التسويق، أما أنت فصاحب الجهد الأساسي والمسؤول الأوّل.

ـــ التسويق والصفقات هي أهم شيء، ولا بد من البحث عنها من الآن. وها أنا بعد أخذي بفكرتك وتجسيمها منتظر منك جلب طلبات

Scanned by CamScanner

التجهيز الصحّي والمواد الحديدية من أختك والشركات العقارية المثيلة... فأنا لم أسخّر مالا وجهدا كالذي رأيت لأبيع الأقفال والمسامير.

ـــ لن تجني غير الريح... سترى.

ـــ قل لن نجني جميعا غير الربح... أختي مساهمة في رأس المال، كما أن لك نسبة محترمة على ما تجلبه من صفقات.

ـــ نحن أقارب... أعني سنكون كذلك قريبا، فلا تكثر من ذكر الربح والخسارة بيننا.

ـــ أنا « محاسبي » كبير يا سي عزّوز، أفكّ الرّموز وأضع كل مسألة في خانة خاصّة.

يتمتع عثمان بتلك الصفة فعلا، لبسها منذ غادر السجن. عاهد نفسه على عدّ الخطوات واستقراء جميع الاحتمالات قبل كل قرار. بهذا تحصّن في كل العهود، واخترق كل الأزمات سليما معافى، وصولا لهذه الحقبة الخصبة، حيث يسارع الكلّ الى الإثراء بمختلف الوسائل، يستنبتون المشاريع من تحت الأرض.

تمت الدعوة أيامها الى تعايش القطاعات الثلاث : العام والخاص والتعاضدي، ولم يطالب الناس بغير الاجتهاد في العمل وخلق المشاريع، مع فتح السّبل لاقتبال الكسب من أيّ باب أتى.

وقد جرّب عثمان التعاضد وخرج منه بضيعة ومنزل في الريف، وجرّب القطاع العام بإشرافه على شركة «ميكاكلتور» شبه الحكومية، بقي القطاع الخاص، وهذا أوانه، نبّهه عزّوز إلى ذلك ذات يوم وهو يزوره :

ـــ لا مناص لك في النهاية يا سي عثمان من إنشاء مشروع خاص بك. لنفرض أن الدولة قررت بيع شركاتها، أو رمتك يوما بشاب متسلق فزاحمك على المنصب. إنك لن تشعر بالحرية المطلقة إلا في

Scanned by CamScanner

مشروع على ملكك. ولك أن تجمع بين المشروعين مؤقتا فتحوز اللذتين، ولن تحسدك الدولة وهي هي عمرة تحمّسها للمبادرات الخاصة، بل ستشكرك على جهدك... وأنت قد جرّبت القطاعين فأكمل الحلقة.

ـــ يالك من وسواس خنّاس. وما هو الميدان الأنسب في رأيك ؟

ـــ البلد كله حظيرة بناء كبرى، ولا بد لكل دار تبنى من تجهيزات صحية وأقفال ومواد حديدية. وهذه كلها مستجلبة من الخارج بنسب أرباح عالية. لقد لاحظت كمية ما تشتريه أختي وزوجها من هذه المواد، فهالني ما يصرف فيها من أموال. ولك أن تتصوّر إن اختصّوك بالتزويد، هم وعشرون مثلهم من العقاريين، مقدار الربح المضمون، زيادة عن العابر وابن السبيل.

ـــ لقد تحسنت ثقافتك الاقتصادية يا عزّوز من أين لك هذا ؟

ـــ هذه كلمة مرعبة يا سي عثمان. لا أنصحك بإعادتها أمام أصحابك. أما ثقافتي فاكتسبتُها من عشرة عامر زوج أختي، ذلك الرجل الآلة.

ـــ ذكّرتني به، كيف حاله ؟

ـــ من المكتب إلى الفراش، ومن الفراش إلى المكتب، ولا شيء بينهما.

هذا صهري عزّوز يتحرك بين المكاتب والشركات، كرجل أعمال عريق، حسَن الهندام مصفّف الشعر. قد تعلّم التصرّف بلياقة وتهذيب أما داخله فما تغيّر ولا تهذّب. في كل المعركة التي نخوضها أنا وأخته يوميا لتفقد الحظائر ودراسة المشاريع، واستجلاب الحرفاء، لم يختر غير دور السمسرة والتوسّط، حتى انتهينا إلى

Scanned by CamScanner

أنه جُبل على هذا وانه لا يصلح إلا له، بعيدا عن كل مفاهيم الانتاج، وخلق الأشياء أو ابتداعها. واكتفينا في النهاية بإعطائه دور جلب المشترين، وتنظيم زيارات الحرفاء للإنشاءات الجديدة.

إلا أنه حشر نفسه في وساطات إضافية كحرصه بأن نتزوّد من شركة عثمان دون مقارنة الأسعار، أو أن نشتري أراضي البناء من سعيد الذي انحشر في مضاربات عقارية يملك لها ما يلزم من المال والوقت. ولكم أحرجنا مع أولئك الأصدقاء القدامى، وألزمنا في التعامل معهم ما لا يلزم.

والعجيب أنه استحوذ على أصدقائي لكثرة تردده عليهم وتودّده إليهم بشتى الطّرق والوسائل، حتى أنني لم أفاجأ يوم علمت بخطبته لأخت عثمان الأرمل... فأين خبأ ذلك الماكر شراهته إلى المال طول أيام العطالة والبطالة ؟

المهمّ بالنسبة لبديعة أنه تزوّج وكفى، وهي التي اعتقدت أن هذا لن يحدث أبدا. ربّما تصوّرت أنها قد رمت حملها على امرأة أخرى، كمن توكل ابنها القاصر إلى محضنة.

حضرنا ليلة عرس كامل الأبّهة. من كان يصدّق أن يظهر عزّوز إلى جانب عروسه كالطالب الخجول، وأن يكسب ابتسامته كل تلك البراءة الفاتنة ؟ مظهر لا ينمّ عن المخبر، كما جرت العادة، وكما هو الحال في ذلك الزمان المشتهر بالتقافز والتنافس والتداسس والتّجاسس.

حتى إذا انتشى الجميع بالغناء والرقص، وابتشموا

Scanned by CamScanner

بالأكل والشرب اصطفّت العائلة كلها لصورة تذكارية تخلّد الحدث، وتظهر ما تركه في النفوس من بهجة، لا أدل عليها من البسمات العريضة المرسومة على جميع الوجوه رغم ندوب الجسد وجراح الرّوح.

صورة إذا نفضت عنها الغبار بعد سنوات لن تقول لك سوى أنها أخذت في بلد لا كدر فيه، شيمة أهله السعادة الدائمة... بحرهم هادئ وسماؤهم زرقاء.

Scanned by CamScanner

إنجاز وتصميم
منشورات « تبر الزمان »

تم طبع هذا الكتاب على مطابع سانباكت (تونس)
لحساب منشورات « تبر الزمان »

بحر هادىء سماء زرقاء
تأليف عبد الواحد براهم
من كتب « تبر الزمان » ضمن سلسلة « سراب »

الإيداع القانوني : الثلاثية الثانية من سنة 2005
ISBN : 9973 - 44 - 009 - 9

سعر النسخة : 7 دينارا تونسيا (15 $)

منشورات « تبر الزمان »
3 نهج البقيع
رياض الأندلس - النزالة 2083
الجمهورية التونسية
الهاتف : 215 822 70 (00216) - الفاكس : 080 822 70(00216)
e-mail : or.dutemps@planet.tn

Scanned by CamScanner

Scanned by CamScanner